جميل إبراهيم حبيب

سيرة

الزبير بن العوام

ومواقفه من معارك التحرير والفتوحات العربية الإسلامية



الدار العربية للموسوعات

سيرة
الزبير بن العوّام

الدار العربية للموسوعات

ص. ب : ٥٣٤٨/ ١٣| تلكس : ARATRD LE ٢٣١٠٧

بيروت ـ لبنان .

جميل ابراهيم حبيب

سيرة الزبير بن العوام

ومواقفه من معارك التحرير والفتوحات العربية الاسلامية

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى ١٩٨٥

الإهـــداء

أهدي هذا الكتـاب من أعماق القلب والشعـور إلى أهل العلم ومحبي الحقيقة في كل مكان وزمان . . .

وأرفق هديتي هذه كذلك بتقديري الخـالص وتثميني الـوافر واحتـرامي البالـغ لدارسي التـاريـخ والمتغلغلين في شؤونه والساهرين على صيانته والـذين لا يخافـون في الحق لومة لائم .

المؤلف

المقدمة

وبعد فلقد كان من جملة ما كنت أحلم به، هو أن تؤاتيني الفرصة السانحة في التأليف عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، وقد راودتني هذه الفكرة يوم كنت طالباً في كلية الاداب ـ جامعة بغداد . إلا أن ظروف الدراسة في حينها وتزاحم مشاكل الحياة بعد التخرج ، كلها ، جعلت الموضوع في مدٍّ وجزرٍ بين التعجيل والتأجيل أو بين الإقدام والإحجام . ووسط كثير من المصاعب المزعجة ، اختلست الفرص لمراجعة المكتبات من أجل متابعة المصادر ، مع شراء قسمٍ منها أحياناً من أسواق الكتب .

وبين جميع تلك الحالات استطعت الحصول على هذه المادة المتواضعة، وإن لم تكن في الحقيقة تمثل وصول الموضوع إلى حد التكامل، ذلك لأن تناول الدراسات التاريخية وخاصة الشخصيات البارزة، ليس من الأمور السهلة كما يتصور البعض.

تدور الدراسة في هذا الموضوع عن أحد الرجال العظام في التأريخ العربي والإسلامي، وهو الزبير بن العوام الأسدي حواريٌّ رسول الله وفارس الإسلام، وأحد أركانه الصلبة، وأبرز قواد الفتح الإسلامي في تحريرِ الشام ومصر العربية. من السيطرة الأجنبية.

حقاً إن الزبير لجدير بالدراسة والتحليل والتمجيد والتخليد، فهو أحد حملة الفكر الإسلامي المضيء، وأشهر المضحين في سبيل استقراره واستمراره، وقد قدم كل جهوده وإمكانياته وبنفسه من أجل إعلاء كلمة الله ودعم رسوله

لنشر العدل والخير والحق.

وهو من المؤسسين الأوائل الذين أطلق عليهم التأريخ على لسان الرسول العظيم محمد ﷺ «العشرة المبشرة» و«لكل نبي حواري وحواري الزبير»(١).

وهو أول من شهر سيفه في الاسلام «قيل له قد قتل رسول الله ﷺ فخرج بسيفه يسعىٰ وهو غلام أسنده العسكري عن الشعبي وأخرجه الحاكم في المستدرك عن عروة وفيه أن الزبير كان ابن إحدى عشرة سنة، وأخرجه السلفي في الطيوريات عن سعيد بن المسيـب : أول من سلّ السيف في سبيل الله الزبير بن العوام فقال النبي ﷺ : صلى الله عليك وعلى سيفك»(٢).

وتجنباً للتطويل في الكلام عن البطل الزبير بن العوام في هذه المقدمة العاجلة، لأن في الكلام سعة لمن يريد التتبع والإحاطة، بعد ذلك، نختم الحديث بتقديم الشكر العميق مع الاعتراف بالجميل لمن ساعدنا وشجعنا في تأليف هذا الكتاب الذي نبسطه بين يدي القارىء إن شاء الله. ورائدنا من ذلك كله، هو إظهار شخصياتنا القومية والاسلامية بتاريخ صحيح وصور سليمة، ودراسة عميقة مستمدة من جذور تراثنا الخالد، والوقت ما أحوجه الآن لمثل هذه الدراسات الضرورية جداً، والله ندعو التوفيق.

بغداد / حي السلام

الخميس ١٢ آب ١٩٨٢ ميلادية

٢٢ شوال ١٤٠٢ هجرية

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من الزمان.
تأليف الإمام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن سليمان اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة ٧٦٨ـ منشورات بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٠، الجزء الأول.
« والحواري الناصر وقيل الخاصة » نفس المصدر ص ٩٨ أيضاً.

(٢) الوسائل الى مسامرة الأوائل ـ جلال الدين السيوطي. تحقيق الدكتور سعد أطلس ١٣٦٩ هـ/١٩٥٠م. مطبعة النجاح. بغداد.

إسمه ونسبه من أبيه وأمه وكنيته :

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الأسدي(١) وبنو أسد فرع من قريش(٢).

وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، أسلمت وأبلت بلاءً حسناً في سبيل الله ورسوله، وموقعة أحد ومواقف أخرىٰ كثيرة تشهد لها بذلك، وكانت شاعرة، وهي شقيقة حمزة عم الرسول ﷺ تزوجت مرتين في الجاهلية، فكان زوجها الأول الحارث بن حرب بن أمية، ثم خلفه عليها العوام بن خويلد(٣).

يجتمع نسب الزبير مع نسب الرسول ﷺ في قصي بن كلاب من جهة أبيه العوام بن خويلد، ومن جهة أمه صفية في جد الرسول ﷺ عبد المطلب، والنبي ابن خاله(٤).

وتتعدد مسألة قرابة الرسول ﷺ مع الزبير بن العوام من عدة جهات. يرويها عبدالله بن الزبير عن أبيه، كما ورد في تأريخ لطبري «انه قال له: يا بني: كانت عندي أمك وعند رسول الله ﷺ خالتك عائشه، وبيني وبينه من الرحم والقرابة ما قد علمت، وعمة أبي أم حبيبة بنت أسد جدته، وأمي

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٩٦ .
(٢) سبائك الذهب في معرفة فضائل العرب ص ٦٨ .
(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ٣٢ .
(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ ص ٣٥٢ .

عمته، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة وزوجته خديجة بنت خويلد عمتي»[١].

وكانت أمه تكنيه أبا الطاهر بكنية أخيها الزبير بن عبد المطلب. واكتنىٰ هو بأبي عبدالله ـ بابنه عبدالله ـ فغلبت عليه[٢] واشتهر بها.

حياته في الجاهلية

ولد الزبير بن العوام رضي الله عنه في مكة قبل البعثة المحمدية بست عشرة سنة ،[٣] على أشهر الروايات وأقربها للرجحان . قذفه القدر في الحياة يتيماً ، وهو صغير وذلك بفقدان أبيه العوام ، الذي كان يشتغل نجاراً في الجاهلية ومن المعدودين من أهل النسب والشرف[٤] ، فتكفل بمعيشته عمه نوفل بن خويلد ، وكانت تتولىٰ تربيته أمه صفية بنت عبد المطلب[٥] .

ومما يلفت النظر بل مما يجدر ذكره، أنه لم تقع أيدينا على جملة خصبة من أخبار الزبير بن العوام في الجاهلية ولم نحصل إلا على نزر يسير، ومعرفة أخباره في الجاهلية ضرورية لنا في هذا البحث، لأن خطتنا التي سنلتزم بها هي متابعة حية الزبير من ولادته ونشأته الأولية في الجاهلية التي أدركها، وبلغ فيها مرحلة مهمة من العمر، إلى إسلامه، ثم الى وفاته أخيراً، وذلك حتى يكون التكامل في بناء هذه الشخصية واضحاً، والتلازم بين خصائصها، منذ نموها الى نهاية تطورها، ظاهراً للعيان وعلى الحقيقة، بحيث تخضع لمقاييس المعرفة التاريخية الصحيحة المتوخاة، والتي لا جدال فيها ويكون القرار عنها

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ ص ٣٥٢ كذلك .
(٢) أسد الغابة ج ٢ ص ١٩٦ ، فتوح مصر ص ٢٦٣ .
(٣) الطبقات الكبرىٰ لأبن سعد ص ١٠٢ م ٣ .
(٤) الزبير بن العوام ـ سلسلة الأبطال ص ٤ العدد : ٢٤ .
للمؤلفين محمد عمر الداعوق ـ محمد علي القطب ـ بيروت ـ صيدا .
(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٢٦ .

بعد ذلك ما بعده من قرار آخر ينقضه والطمأنينة حولها ثابتة لا موضع لأثرٍ من مواطن الشبهة والظن والشك فيها.

وحاصل ما ثبتناه فيما يتعلق بعمره في الجاهلية والذي ذكرناه في مستهل الموضوع، أنه عاش ست عشرة سنة وربما كان أكثر من ذلك(١)، ويجب أن نعلم أن هذه المرحلة من العمر مهمة بل من أخطر مراحل الفرد في نموه التكميلي، ولا شك أنها عنفوان المراهقة، وشدة إرهاف نضوج الحساسية، واستحفاز الكوامن، وملاحظة مظاهر الحياة، وتوقع شتى الاحتمالات المختلفة من مخاطر المستقبل المجهول، وخاصة في مجتمع كالمجتمع الجاهلي المنخور البنيان آنئذٍ.

وهذه حقيقة علمية ومؤيدة من الدراسات النفسية، تلازم كل شاب وترافقه في مثل هذه المرحلة الحرجة من العمر في أي مكان وزمان بالعموم.

وللتأكيد أكرر فأقول ثانية، إن ما وصلنا من أخبار الزبير بن العوام في الجاهلية، عبارة عن لمع لا تتجاوز الروايات الأحادية والقليلة،... فبعد موت أبيه العوام، تولاه عمه بالنفقة عليه، وتولته أمه بمسؤولية تربيته، هذا مع ما يجب أن نعلم أيضاً، عن أمه، التي رزئت بحرمانها من نعم الزواج الأول والثاني، وما امتزج مع هذا الحرمان من ألمٍ وحزنٍ بالغين.

كانت هذه الأم تكثر من ضرب هذا الطفل اليتيم وتقسو عليه كما ينقل لنا ذلك التأريخ، وتزعجه في ضربها إياه، وتعامله بأسلوب عنيف وطبيعة قاسية، وألفاظ مشحونة بالزجر والنهر، وهو بعد طفل صغير، لم يكن له ذنب جناه، ولم يملك قابلية الاستفسار والاحتجاج على معرفة سبب ضرب أمه له، فيرى العم نوفل وضع هذا الطفل الأليم، فتستجيش في صدره الرقة ونسمات الحنان العذبة وتفيض في قلبه موجات متدفقة من شحنات العطف النابضة،

---

(١) جاء في الوسائل الى مسامرة الأول. للسيوطي ان الزبير «أول من شهر سيفه في الإسلام» وكان ابن احدى عشرة سنة. ص ٦٢ـ٦٣.

فيتدخل لوضع نهاية جدية لتصرفات صفية، وينصحها الرفق به، لكنها لا تلقي سمعها إليه ولا تعبأ بكلامه، وتتهم بالكذب من يقول أنها تضربه لأنها تكرهه وتبغضه.

ومما جاء في هذا الصدد ما ذكره كتاب الإصابة في تمييز الصحابة(١) لمؤلفه بن عبد البر على لسان الزبير بن بكـار حيث قال: إن العوام لما مات كان نوفل بن خويلد يلي بن أخيه الزبير، وكانت صفية تضربه وتغلظ عليه، فعاتبها نوفل وقال:

ما هكذا يضرب الولد؟
إنك لتضربينه ضرب مبغضة!!
فرجزت به صفية:
من قال أني أبغضه فقد كذب
وإنما أضربه لكي.. يلب
ويهزم الجيش ويأتي بالسلب
ولا يكن لماله، خبأ، مخبِ
يأكل في البيت من تمر وحب

وهذه رواية ثانية تعزز هذه الحقيقة وتوافقها إن لم نقل تطابقها، فلقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد: إن صفية كانت «تضرب الزبير ضرباً شديداً، وهو يتيم، فقيل لها: قتلتِه! خلعتِ فؤاده! أهلكتِ هذا الغلام!

قالت:

إنما أضربه لكي يلب
ويجر الجيش ذا الجلب»(٢)

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٢٦.
(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ج ٣ ص ١٠١ م ٣.

ولما يجد نفعاً معارضة نوفل الى صفية حول أسلوبها مع ابنها الزبير، يذهب الى بني هاشم شاكياً ويخبرهم عن عنفها وقسوتها على الزبير، وكان عندما تعرض لهم في ذلك يقول لهم:

يا بني هاشم ألا تزجروها عني؟[1]

لكن صفية كما قلنا لا تبالي بأحد وهي مستمرة في إصرارها وماضية في خطتها التي ترميها بعيداً، وذلك بأن إعداده ـ يعني الزبير ـ للحياة لا يصلح إلا بهكذا، وهي في هذا ترى نفسها أولى بالمسؤولية من غيرها.

ويمكننا أن نلقي بعض الظلال للكشف عن سر هذا السلوك من صفية في تربية ابنها بما يلي:

فأقول إن صفية كانت محقة في اعتقادها، سيّما إذا استندنا في تحليلنا الى دراسة ظروف المعايشة الاجتماعية آنئذٍ، وذلك لأننا لو رجعنا الى معرفة الأوضاع العامة في المرحلة الجاهلية وعلى الاطلاق لنراها تنحصر بالحقيقة الآتية والتي مفادها:

إن عصر الجاهلية، عصر كانت فلسفته الحياتية في المعايشة اليومية، القوة في جميع مظاهرها، ولا مكانة للضعيف بين عواصف وهزات هذه الفلسفة الهوجاء.

القوي هو الغالب دوماً..

والضعيف هو المغلوب والمسلوبة حقوقه..

وهذه قاعدة ثابتة فرغوا منها ونزعوا إليها في حياتهم.

وتستمر أجيال وتليها أجيال أخرى، فتذهب هذه، وتأتي غيرها، وهكذا.. ولا تبديل يجري على هذه السنة، ولا تطوير يسري إلى مفعولها، في طباعهم وعقولهم وأحوالهم.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٢٥٦ ج ١.

وكانت هذه الفلسفة متمثلة في أبشع صورها في عصبية الفرد في إطار قبيلته، معتمداً على قوتها وبطشها وشجاعة أتباعها وبأس المنتمين إليها، خاصة عند توحيد عزائمهم وتشحيذ إقدامهم على من يتعرض لهم ويمسهم بسوء.

وصفية لا ترضى أن يكون ابنها جباناً حين ينشأ ويكبر وسط هذا المجتمع المتأجج والمتخاصم، على أتفه الأسباب، ويؤكل حقه، وإنما تريده ان يكون مهاجماً شجاعاً مقداماً، ففي ضربها له واستفزازه، كأنما تريد بذلك أن تتولد في نفسه ـ حسب مصطلحات عصرنا ـ ردود فعل انعكاسية، للثبات في وجه كل خطر مداهم، والسباق الى الغارات واقتحام المخاصمات، بقلب لا يخشع وهمة جسورة وعزيمة جلدة لا تعرف للتردد أيَّ معنى في مفردات حياته.

ولذلك نرى أنه على الرغم من صغر سن الزبير، استطاع أن يفرض احترامه على الجميع في «مكة» وأن يقدر القريشيون بلا استثناء مكانته، وأن يحسبوا لغضبه ألف حساب.. وأضف الى شجاعته؛ مكانته الاجتماعية المرموقة.. إذ جمع المجد العائلي من أطرافه، فأبوه العوام بن خويلد، أخو «خديجة بنت خويلد» زوجة النبي ﷺ وسيدة نساء قريش حسباً وخلقاً ومالاً وجمالاً.. وأمه صفية بنت عبد المطلب، في الذروة من بني هاشم... وكان والد الزبير «العوام» نجاراً، لكن هذه المهنة لم ترق للزبير إذ أَلِف الجزارة وافتتح دكاناً يعمل فيه، أدواته السكاكين وبضاعته اللحوم...[1].

وهناك رواية ـ إلا في بعض الاختلاف ـ ترد في كل من كتاب الإصابة في تمييز الصحابة[2] وكتاب الطبقات الكبرى[3]... أن الزبير بن العوام قاتل ذات يوم وهو غلام، رجلاً، بمكة، فكسر يده فمُرَّ بالرجل محمولاً على صفية،

---

(١) الزبير بن العوام ـ سلسلة الأبطال ص ٤ .
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٢٧ .
(٣) يراجع الطبقات الكبرىٰ م ٣ ص ١٠١ ، طبع بيروت ١٥٧ .

وفي الرواية الثانية أنه كسر يد غلام ذات يوم فجيء بالغلام إلى صفية، وأيّاً كان منهم المقصود الرجل أوالغلام، فإن جواب صفية كان متقارباً بل واحداً، وهو أنه حينما سألت صفية عن الخبر، قالت للرجل. كان أم الغلام:

كيف رأيت ـ أوجدت ـ؟
زبراً آأقطاً حسبته أم ثمراً أم مشمعلاً صقراً؟

هذه أهم ما استنتجناها في الاشراقات المحتجبة بالغيوم المكفهرة المفزعة من حياة الزبير الأولى.

يتيم تحت كفالة عم ليس له عليه نفوذ إلا من جانب لا مباشر، ولكنه خاضع تحت سيطرة تامة لأم تضغط على حوافزه وتستشيط جوارحه وتقدح زناد عصبيات جسمه المكره أنىٰ شاءت دون أن تحاسب.

شاءت قساوة القدر أن يموت أباه وهو صغير، ولم يذق حلاوة الحياة الطفولية العذبة، المبكرة كسائر أطفال الدنيا وانحرم من تلمس نسيمات الأبوة الضرورية لكل وليد يأتي الى الحياة.

جاوز أولى أيام حياته بالآلام والتحمل البالغ الذي يعجز عن التعرض له كبير عقل ونفس وتجربة وصواب.

كبر ووصل دور الحلم، والقلق من المجتمع لا يفكه، وأعصابه لا تهدأ، وقرارة دخائله لا تستقر.

مجتمع كله فوضىٰ واضطرابات ومشاجرات..

أطفأ حوالى ست عشرة من شمعات حياته في الجاهلية، والاستفزاز نفس الاستفزاز، والمجتمع هو هو، لم يتبدل، كما رأى صورته المصغرة في بيته.

وهل إذا استمر على هذا المنوال من الحياة سيحفظ قيمة مكانته بصورة متكاملة؟

فهل هناك نبراس للهدى والقرار لهذا التيه؟

سؤال وجيه يجيب عنه الموضوع الذي يليه مباشرة.

إسلامـــه

لا يمكن أن نحكم على إسلام الزبير بأنه كان من وليد المصادفة وابن اللحظة، فلا بد إذن من استخراج تفسير صحيح لإسلامه، وإذا تعمقنا في التحري عن اكتشاف هذا المجهول ضمن المراجعات العقلية، يتوضح لدينا بسهولة صحة التحقيق والتقدير.

ولأجل طرح التحقيق بصورة أجلى للمتتبع، فحين ذاك نحتاج الى ربط الأسباب بالنتائج، فنحن نعلم أن آخر نتائج حياة الزبير بن العوام بالجاهلية، هو انقطاعه عنها وتحوله الى استئناف حياة جديدة في ظل العقيدة الاسلامية، الى مدى الحياة، وذلك فور سماعه عنها من فم أبي بكر الصديق، وبدعوته له هو وجماعة آخرين «وكان إسلامه بعد أبي بكر رضي الله عنه بيسير، وكان رابعاً أو خامساً في الاسلام»(١).

لقد كانت استجابة الزبير سريعة للإسلام.. وأن سرعة تحوله من الجاهلية،ـوتغيير معتقده وقيمه الى شكل جديد وطراز آخر وهو الإسلام، وقبوله له منهجاً لحياته، وخطأ ضرورياً لربط مصيره الاجتماعي الجديد به!... لا يمكن أن نجد له تبريراً مقنعاً وشافياً، إلا بتبرمه من تلك الحالة التعسة التي كانت تتحكم بها قوانين وأعراف الجاهلية البالية، وكذلك اشمئزازه من أساليب الحياة فيها، وسخطه من التضعضع الاجتماعي والانهيار العقائدي، والاضطرابات المستمرة، بنتيجة تحكم روح القبلية القلقة الشائعة وسط المجتمع آنئذٍ .

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٩٦ .
وكذلك السيرة النبوية لابن هشام ـ المجلد الأول دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ، ١٩٧١ ط ٣ .

وقس على ذلك التناقضات الخلقية والتفاوتات الاقتصادية والطبقية الفضيحة والتي كانت تسبب الفجوات وتجلب الكوارث المستمرة، وتخلق الأزمات العنيفة، بالاضافة الى سيطرة القوي على الضعيف .

ومن هنا نستطيع أن نحكم وأن نتفق معاً على أن إسلام الزبير، كان نتيجة حاجته اليه قلباً وروحاً، لحماً وعظماً، بشعور دافق، وبرغبة متعاظمة، من أخمص قدميه إلى قمة رأسه. إذ يعتبر إسلامه نقطة تحول جديد، بواسطته استطاع ان يتجاوز المشقات وينفض عن نفسه غبار الجاهلية ، للدخول في دين سماوي يحترم قيمة الإنسان وقيمة المجتمع ويحقق للإنسانية الصفاء والخير والسعادة والأمان والحق والعدالة .

تأريخ وقصة إسلامه

ومما نحتاج إلى التأكيد عليه في هذا البحث هو تزويد القارىء بتأريخ وقصة إسلامه، لأن لتأريخ إسلامه أهمية كبرى في حياته، إذ كان في فترة حساسة جداً، من عمر الاسلام الوليد، ولأن في قصه إسلامه عبرة تدل على قوة الإيمان والصبر والثبات والتضحية والإخلاص للعقيدة والوفاء لمبادئها النيرة.

تاريخ إسلامه

وقد صادف تأريخ إسلامه أو يوم دخوله في الدين الجديد وهو الاسلام، بأولى طوالع أو مبادرات الدعوة الاسلامية وبوقت مبكر جداً، والتي تسمى على حد تعبير الدكتور أحمد شلبي[1]، في كتابه التاريخ الكبير والحضارة الاسلامية، . بالمرحلة الفردية، وهي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة والتي دعا فيها الرسول ﷺ سراً، أهل بيته، كما دعا خاصة أصدقاءه، الى الإيمان بالله، وبوحدانيته، وترك عبادة الأوثان، فكان من ضمن من آمن به، زوجته خديجة بنت خويلد، وابن عمه علي بن أبي طالب، ومولاه زيد، ثم دعا

---

(١) التأريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ط ٢ ، ١٩٥٩ ـ القاهرة جـ١ .

الرسول أبا بكر الذي كانت له به صلة وثيقة من الصداقة القوية، وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون، عثمان بن عفان والزبير بن العوام (والذي كان آنذاك يشتغل قصاباً في مكة - أي أثناء إسلامه)[1] وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة الجراح، والأرقم بن أبي أرقم الذي اتخذ الرسول والمسلمون داره مقراً لبثِّ نشاطات الدعوة السرية للدين الجديد ومقراً لتجمعاتهم الدائمة في سبيل اتخاذ القرارات اللازمة، وقد دخل مع هؤلاء المذكورين، مجموعة من موالي قريش والفقراء، وقد استمرت هذه الدعوة ثلاث سنين[2]، وقد سُمِّيَتْ هذه المرحلة من قبل المؤرخين، بالمرحلة السرية للدعوة الإسلامية. والتي هي من أحرج فترات الدعوة من أيام البعثة النبوية المباركة.

قصة إسلامه

بعد أن هدى الله قلب الزبير للإسلام، بواسطة أبي بكر الصديق، أصبح لديه واضحاً بأن دخوله في هذا الدين الجديد الذي نور مخبره وملأ رشده، ورضي له سلوكاً يسير به على خطاه، سيجلب عليه المعاكسات والعواقب السيئة من المجتمع الجاهلي لا محالة.

وأما احتمال الخطر، فالزبير كما رأيناه سابقاً ليس غريباً عليه ذلك، فهو عندما نشأ صغيراً، كم كانت أمه صفية تكيل له الضربات؟ ولكن رغم ذلك كان يتحمل ويصبر وينتظر الفرج وينظر إلى المستقبل بكل ثقة.

أسلم الزبير دون خوف، وعندما بلغ عم الزبير إسلامه طار صوابه غضباً، وضاق به ذرعاً، فأخذه، وعاناه العذاب، وألح عليه بترك عقيدة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، والرجوع الى الجاهلية، دين الآباء

---

(١) سلسلة الأبطال - الزبير بن العوام ص ٤ - الطبع بلا تاريخ - بيروت . صيدا ، منشورات المكتبة العصرية .

(٢) التاريخ والحضارة الإسلامية ، الدكتور أحمد شلبي جـ١ يراجع موضوع الدعوة الإسلامية .

والأجداد، . . . وكان سلاح الزبير في وجه عقوبة عمه المؤلمة والموجعة، هو الصبر والإيمان والثقة بالله وعدم التخلخل والتزعزع، والثبات أمام هذه المحنة الشديدة، شأنه شأن العظماء عندما تواجههم المشاكل العويصة، والتي يلاقونها بأنفة وكبرياء، وقوة، ويمرون عليها مرور الكرام.

جاء في الإصابة «كان عم الزبير، يعلقه في حصير، ويدخن عليه، ليرجع الى الكفر، فيقول: لا أكفر أبداً»[1].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٢٦ .

الزبير والمسؤولية

بعد ذكر ما سبق، أصبح الزبير الآن تحت الأمر الواقع للمسؤولية الحقيقية وجهاً لوجه، وهذا الشيء يتطلب الإحساس الجسيم، والالتزام التام بأداء الواجب بأكمل صورة وبأفضل ما يمكن.

ومما لا يغرب عن البال، أن صاحب الدعوة، هو ابن خاله، وهو محمد ابن عبدالله ﷺ ، وهو من أقرب القربى إليه، وزوجته خديجة عمته، ما عدا الجهات الأخرى لصلات القرابة معه، كما وهو محمد ﷺ الذي لم يوصم بنقص من نواقص المجتمع الجاهلي المتفسد، فالزبير هنا أحرى معرفة عن هذه العائلة التي تخصه بالـذات ، ـ دون ـ أو حتى غيره.

فابن خاله النبي محمد ﷺ، كان يُعرف بالصادق الأمين، قبل الدعوة، ولم يُعرف عنه الكذب قط في حياته، وعمته خديجة زوجة ابن خاله محمد ﷺ، صاحب فكر الدعوة الإسلامية، قلّ من يصل إلى مركزها الاجتماعي من الشرف والعقل والمال، سواء ذلك من النساء أو الرجال.

كانت نبضات إيمان الزبير منذ البداية شديدة، وكان قلبه كله إسلاماً وحباً لله ولمحمد وللمسلمين، أضف الى ذلك رسوخ ثقته بما تحققه هذه العقيدة الغراء من أهداف وقيم ومثل وفضائل إنسانية نبيلة وما تفتحه من آفاق رحبة من الخير والحرية والعدل والقضاء على المخلفات الماضية البغيضة.

وقد وصل بإسلامه الى درجة راقية جداً حتى أصبح من العشرة الأوائل[1]

---

(١) وهم حسب ما جاء في حاشية كتاب (علوم الحديث ومصطلحاته)ص ١٤٩ وكذلك ص ٣٥٢ =

الثابتي الجنان «والمقطوع لهم بالجنة»[1] والمبشرين بها وهم على قيد الحياة، وذلك جزاء لاخلاصهم في تحمل أعباء المسؤولية كاملة دون كلل أو عجز.

وكان موقفه كغيره من المسلمين الآخرين في الدور السري، من مراحل الدعوة، في السراء والضراء، يأتمر بأوامر الرسول ويتحمل ما يتحمله غيره من الأذى والخطر والغدر واستهزاء وسفاهة أهل مكة، بقلب مخلص وروح متلهفة، ونفس زكية، وعاطفة حارة، لا يترك رسول الله ﷺ ورفاقه المؤمنين لحظة، ولا يفارقهم... وكان هو والمؤمنون يتلقون من الرسول ﷺ الدروس تلو الدروس، ويتعلمون منه أساليب الكفاح والنضال والعبر تحسباً للأيام المقبلة.

وكانت المواقف اليومية التي تواجه الرسول ﷺ مع كبار قريش أيام البعثة النبوية، وصلابة الرسول ﷺ في الثبات أمامها، لها الدور الأكبر في طبع شخصية الزبير اللامعة، وزرع بذور الشجاعة في قراراته، واستلهام الدروس منها خاصة وانها كانت تجري تحت مسمعه ومرآه. وروي عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال الزبير بن العوام، لقد رأيت اليوم عجباً!

رأيت نفراً من المشركين، جلوساً حول الكعبة ورئيسهم أبو جهل بن هشام، فأقبل رسول الله ﷺ وهم يتآمرون بمناهضته، فوقف عليهم وقال: قبحتم، وقبح صاحبكم... فكأنهم خرسوا ما فيهم أحد يتكلم ولا يقوم.

ولقد نظرت الى أخبثهم وأنجسهم وهو يعدو في أثره، يعتذر إليه ويقول: كف عنا ونكف عنك، ورسول الله ﷺ يقول: لا أكف عنك حتى تؤمن بالله أو أقتلك.

= «العشرة المبشرة بالجنة: وهم الخلفاء الراشدون الأربعة ثم سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بين عبيدالله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح».

(١) سبائك الذهب ص ٦٨.

قال: وأنت تقدر على قتلي؟!
قال: الله يقتلك ويقتل هؤلاء.
فانصرف أبو جهل وأولئك منكسرين»[1].

وكانت هذه الخلية النشيطة المباركة التي كان الزبير بن العوام عضواً فيها، تحت قيادة وتوجيهات الرسول العظيمة، هي التي يعود لها الفخر، والمجد، والإكبار. لأنها غيرت وجه التاريخ الانساني وحولته الى مرحلة مشحونة بالأنوار وبعلائم مشرقة من صفات الخير والفضيلة والعمل من أجل إسعاد الانسان والمجتمع، وإزالة جميع أنواع التفرقة، وتحقيق الإخاء والعدل والمحبة.

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى: ج ١ نص الرواية ص ١٨٩ ـ ١٩٠ الجزء الأول من الباب التاسع عشر في ذكر ما لاقى رسول الله من أذى الكفار وهو صابر.
تأليف الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ٥١٠ ـ ٥٩٧ هـ.
تحقيق مصطفى عبد الواحد [ج١ . ج٢]
ط ١ ١٣٨٦ ـ ١٩٦٦ مطبعة السعادة ـ مصر.

الزبير ومواجهات الدعوة

استأنف الزبير بن العوام حياته بعد اسلامه مع الرسول ﷺ وأصحابه البررة، والإيمان يتوسع في مشاعره وآفاقه العقلية يوماً بعد يوم حتى بلغ مداه وطغى على قلبه وحواسه وعواطفه، وكان أينما يتجه، وأينما يذهب، كانت تلازمه باستمرار، ذاكرته، المربوطة بحب الله جل جلاله ومحمد ﷺ، وجماعته في العقيدة، ممتشقاً حسامه لإشهاره في أية لحظة، في سبيل أو في وجه من يقصد أو ينوي، للتعرض الى محمد ـ بالذات ـ بسوء أو غدر أو مكروه.

فكم من كربة أفرجها الزبير عن الرسول وأصحابه في مواطن الضيق والشدة والحرج.

قال الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ عندما جيء له بسيف الزبير بعد مقتله غدراً... «إن هذا سيف طالما فرج الكرب عن رسول الله»[1].

وقد ذكرت هنا قول الإمام علي للاستشهاد به في حق سيف الزبير، وفضل هذا السيف وصاحبه في حماية الرسول وإبعاد المكروه عنه وعن جماعته.

وقد أنشد شاعر الإسلام حسان بن ثابت في ذلك قائلا:

فكم كربة ذبّ الرسول بسيفه   عن المصطفى والله يعطي ويجزل[2]

وهناك خبر يؤكده ويورده أكثر من مصدر تاريخي على أن الزبير كان أول

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ص ١٩٩ ـ ج ٢.
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ص ١٩٨ ـ ج ٢.

من سلَّ سيفه في سبيل الله، وذلك حينما انتشر بين الناس في مكة، بأن الرسول خطفه الكفار، وفي رواية قتلوه، وحالما يبلغ النبأ مسامع الزبير، تثور حميته، ويثور غضبه ويحمل سيفه، ويذهب ليفتش عن الرسول ﷺ ويتأكد الخبر مباشرة. . فعندما رأى الرسول ﷺ وتبين كذب الخبر برد غضبه، وسأله النبي ﷺ عن غرابة مجيئه إليه، فأخبره الزبير، بما سمع، فبارك له الرسول ﷺ ودعا له ولسيفه، هذا هو مجمع الخبر بجميع صوره المختلفة التي رويت، وأما الصيغ التي وردت بها فها نحن نتابع معاً قراءتها حسب ما صرحت بها المصادر التاريخية:

فقد استخلص الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه الوسائل الى مسامرة الأوائل ـ وقد سبق أن وردنا الرواية في مقدمة الكتاب ـ أن. . . «أول من شهر سيفه في الاسلام، الزبير بن العوام، قيل له قد قتل رسول الله ﷺ، فخرج بسيفه يسعى وهو غلام، أسنده العسكري عن الشعبي وأخرجه الحاكم في المستدرك عن عروة وفيه: أن الزبير كان ابن إحدى عشرة سنة، وأخرجه السلفي في الطيوريات عن سعيد بن المسيب: أول من سلَّ السيف فيي سبيل الله الزبير بن العوام، فقال النبي ﷺ: صلى الله عليك وعلى سيفك»(١).

وجاء في ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ في رواية ابن المسيب: أن أول رجل سل سيفه في الله، الزبير، وذلك أن الشيطان نفخ نفخة فقال: أُخـذ رسول الله ﷺ، فأقبل الزبير، يشق الناس بسيفه، والنبي بأعلى مكة، وقيل كما جاء في الكتاب نفسه أن الزبير سمع أن الرسول قتل فخرج «متجرداً بالسيف صلتاً»(٢).

كما ورد الخبر نفسه أيضاً في كتاب ـ أسد الغابة ـ ويتقارب في الاتفاق ويكاد يكمله، وذلك بأن المؤلف يوجز سبب خروج الزبير بالسيف، اثناء

---

(١) الوسائل الى مسامرة الأوائل ـ باب الجهاد ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ص ٥٢٧ ج ١ .

بحثه عن الرسول ﷺ، بعد سماعه خبر مقتله،؛ فيقول: وكــان سبب ذلك: ان المسلمين لما كانوا مع النبي بمكة، وقع الخبر أن النبي قد أخذه الكفار، فأقبل الزبير، يشق الناس بسيفه والنبي بأعلىٰ مكة.

فقال محمد ﷺ له: ما لك يا زبير؟

قال له الزبير: أُخْبِرتُ قد أُخذت!

فصلى عليه النبي ﷺ ودعا له ولسيفه(1).

ويرد الخبر نفسه في كتاب ـ حياة الصحابة ـ للأستاذ محمد يوسف الكاندهلوي(2) حيث يقول:

«أخرج بن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: أول من سل سيفاً في الله الزبير بن العوام رضي الله عنه، بينما هو ذات يوم قائم إذ سمع نغمة: قتل رسول الله ﷺ، فخرج متجرداً بالسيف صلتاً، فلقيه النبي ﷺ كنةً كنةً.

فقال: ما لك يا زبير؟

فقال: سمعت إنك قُتلت!

قال الرسول ﷺ: فما أردت أن تصنع؟

قال الزبير: أردتُ والله أستعرض أهل مكة، فدعا له النبي ﷺ بخير، وفي ذلك يقول الأسدي:

هذا أول سيف سل في غضب ... الله سيف الزبير المرتضى أنفا
حمية سبقت من فضل نجدته ... قد يحبس النجدات المحبس الأرفا

وفي رواية أخرى وردت في المصدر السابق كذلك ـ كتاب حياة الصحابة ـ عن عروة بن الزبير: إن الزبير بعدما سمع النغمة «خرج يشتد في الأزقة، ـ

---

(1) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٩٧ .

(2) حياة الصحابة ج ١ طبعة ١٩٦٨ .

أزقة مكة ـ حتى أتى النبي ﷺ، وهو بأعلى مكة والسيف في يده.

قال له النبي ﷺ: ما شأنك؟

قال الزبير: سمعت إنك قد أُخذت.!

قال النبي ﷺ: ما كنت تصنع؟

قال: كنت أضرب بسيفي هذا من أخذك.

فدعا له رسول الله ﷺ ولسيفه، وقال انصرف».

وتعديد رواية هذا الخبر وتكرار وروده مع التأكيد عليه يثبت على ما كان يكنه الزبير من حب الرسول ﷺ والدفاع عنه إذا حدث له مكـروه، من قبل أحد، والانتقام له، والتضحية بالروح في سبيله وفي سبيل دعوته.

ويكفي تاريخ الزبير شرفاً واعتزازاً ما أشاده المؤرخ أبو محمد عبدالله بن سعد بن سليمان اليافعي، في جمع مواقع أقدامه، وقوة تضحياته، في صددنا الذي نحن فيه، بالعبارة المختصرة التالية والتي بها نعطر هذا الموضوع إذ قال، «وله معارك مشهورة في اليرموك، وغيره مشكورة»[(١)].

واعتقد أن ما جاء في الخبر السابق عن امتشاق الزبير السيف بعد سماعه بخطف الرسول ﷺ، والتسارع في التحري عن صدق هذه الاشاعة ثم التقائه بالرسول مباشرة وبنفسه، . . . فذلك من أروع ما سجله قلم التاريخ للزبير ابن العوام، ومن ألمع ما يثنيه له ويذكره، ويظل صدى هذه اللقطة التاريخية يرن في آذان الزمن وتردده لمسات الحقيقة، وتنقله موجات النور، وتبثه في آفاق الكون، فالزبير يبدو لنا في هذه الحالة، بأكمل ما عنده من حرص واندفاع لحماية قائده وزعيمه محمد بن عبد الله ﷺ، ذات الرسالة الجديدة، والأفكار السامية والمبادىء المثلى، والتعليمات الفاضلة، فقتله معناه، ضياع العقيدة بأكملها وضياع النور الذي أنزله الله «والله متم نوره ولو كره الكافرون»[(٢)].

---

(١) مرآة الجنان ج ١ ص ٩٨.

(٢) القرآن الكريم.

وهنا ندخل في موضوع اجتماعي طويل فيما يخص الرابطة بين الزعيم والجماعة، والتفاعل بين القيادة كمبادىء والأمة كعقيدة، نحن في غنى عن التوسع فيه، لأن ذلك يخرجنا عن هدف البحث وخطته، الرامية إلى تخليد ما يتعلق بسيرة وتأريخ الزبير بن العوام وتكملة ربط تسجيل حلقات حياته منذ البداية الى آخر المواقف، المتعلقة بالموضوع.

الهجرة إلى الحبشة

والآن لنواصل معاً، عما لحق بالمسلمين عامة، والرسول ﷺ، خاصة، من أذى وعذاب، واضطهاد من كفار قريش، وما استعملوه معهم من قساوة ومعاندة ولجاجة، وصنوف العذاب، وما كالوه لهم من خطط لئيمة وغادرة ووحشية في غاية الفظاعة، تقشعر لذكرها الأبدان، وتنفر منها الطباع البشرية الأبية.

وقفت منهم قريش هذا الموقف السلبي جداً، وذلك لاستيائهم من انتشار الاسلام بين الناس، وحزنهم على كسب المسلمين لعناصر جديدة وإيجابية، فأصبح كل مسلم آنئذٍ معرضاً في حياته للخطر والتشنيع والاضطهاد والظلم.. ولما رأى الرسول ﷺ ما أصاب أصحابه من البلاء والشدة، قال لهم «لو خرجتم الى الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»(١)، فلبوا اقتراح الرسول ﷺ، وأطاعوا كلامه ونفذوا أمره، وقد هاجر عشرة رجال ونسوة ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين (٨٣) رجلاً وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان، وكان من ضمنهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ، كما كان الزبير بن العوام، أحد أفراد هذه الزمرة المهاجرة الميمونة، وكان أصغر القوم سناً بينهم(٢).

ولما تم تنفيذ الهجرة الى الحبشة، ووصلوا هناك، كما أمر الرسول ﷺ،

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي. حسن ابراهيم حسن ص ١٠٠٧ ط ١ جـ١ القاهرة مطبعة حجازي ١٩٣٥.

(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ج ١ ص ٢٠٤ بيروت ١٩٦٠ م - ١٣٨٠ هـ.

لاقوا من النجاشي (وهو كما وصفه الرسول لهم قبل مجيئهم عنده)... من العطف والأمان والترحاب، وقد غمرهم ببره بهم، ومعرفة حقهم، ولذلك اعترف بإحسانه جميع المهاجرين والمهاجرات.

ومما يجدر ذكره أن أمير المسلمين في الحبشة كان ابن عم النبي ﷺ، جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه، الذي شهد له الرسول ﷺ «يا جعفر أشبهت خلقي وخلقي»، وقد تمكن سيدنا جعفر بموهبته وذكائه وسمو أخلاقه أن ينال مكاناً محسوساً من قلب النجاشي ومنزلة لائقة لديه.

ولا بد أن نذكر أيضاً، أن جعفراً هو الذي فضح المكيدة التي دبرتها قريش للمسلمين في ديار الهجرة، حينما أرسلوا إلى النجاشي الرسل من تقليب نيته عليهم.. والمهم من كل ذلك أن جعفراً سيد الجماعة المهاجرة في الحبشة، لم يتوقف هناك في توضيح ونشر الاسلام، وكانت له ميزة بارزة بين جماعته، والتي كان الزبير بن العوام من ضمنها، إذ يسوءه ما يسوءهم ويسره ما يسرهم، ويلاقي ما يلاقوه.

استأنف المهاجرون حياتهم هناك، في ديار الهجرة، في حماية النجاشي الكريم والعطوف على المسلمين، في راحة وهدوء، وكانوا بدورهم يكنون للنجاشي احتراماً كبيراً واعترافاً له بالجميل، لكن الحالة هذه لم تدم لهم، بل سرعان ما لاحت لهم مزعجات أنذرتهم بالقلق والتخوف من تطور الأمور الى الأسوأ، وذلك حينما علموا بأن شراً سيطرأ على مُلك النجاشي وربما يزيله، ولكي نحيط بالخبر من جوانبه الكاملة، نستمع الآن معاً إلى قول إلى إحدى المهاجرات، وهي أم سلمة[1]، وهي تصور لنا شدة المحنة التي ستحل بهم، لو فقدوا النجاشي، إثر التمرد الذي انفجر في وجه حكمه، في الوقت الذي كان المسلمون يتمتعون بأقصى ما يمكن تصوره من الخير والاستقرار وغمرة الطمأنينة في ظل سلطانه.

(١) تزوجها الرسول (ص) بعد موت زوجها ورجوعها من الحبشة.

قالت السيدة الجليلة أم المؤمنين:

«بينما نحن في خير دار مع خير جار، إذ نزل بالنجاشي، رجل ينازعه في ملكه، فوالله ما أصابنا خوف وحزن قط، كان أشد من خوف وحزن نزل بنا، أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان يعرف منه.

قالت: «وسار اليه النجاشي وبينهما عرض النيل فقال أصحاب الرسول ﷺ: من يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا الخبر؟ فقال الزبير: ـ أنا ـ وكان من أحدث المسلمين المهاجرين سناً.

قالوا: فأنت!

فنفخوا له قربة وجعلوها تحت صدره، ثم سبح عليها حتى خرج الى ناحية النيل والتي بها يلتقي القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: ودعـــونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكن له في بلاده، فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير يسعى ويلوح بشيء... ويقول: ألا أبشروا فقد ظهر النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، وجاءت في السيرة النبوية أيضاً، الرواية بصيغة أخرى قريبة «إذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع ثوبه وهو يقول: « ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ومكّن الله له في بلاده».

قالت: «فوالله ما أعلمنا فرحة مثلها قط، ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، واستوثق له أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل»(١).

---

(١) راجع كتاب جعفر بن أبي طالب: محمد جواد القبان النجف ١٩٥٤ ص ١٠١ ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤ وكذلك راجع حياة الصحابة الجزء الأول من ص ٣٥٠ الى ٣٦٢ قصة هجرة جعفر الى الحبشة.

وبانتصار النجاشي على خصمه أمن المسلمون مرة ثانية على حياتهم، وأرواحهم، واطمأنوا على استدامة غمرتهم برعاية النجاشي وفضله الوفير، وكانت للنجاشي علاقات وثيقة من المودة بينه وبين المهاجرين، بصورة عامة، ومنها علاقته بالزبير بن العوام الذي كان يكن له المحبة والاحترام البالغين، فقد جاء في الباب الحادي عشر من كتاب الوفا، بأحوال المصطفى[1] (في موضوع حمل الحربة بين يديه ﷺ يوم العيد)... «كان النجاشي قد وهب للزبير بن العوام حربة، فكانت تلك الحربة تحمل بين يدي رسول الله ﷺ في الأعياد».

نعود الى موضوع تطوع الزبير في استكشاف الخبر للمسلمين، أي خبر المتمردين، وبالتالي تبشير المسلمين بانتصار النجاشي.. أقول، ونحن نقرأ الرواية ونفحصها تلفتنا وقفة جيدة من الزبير الفتى حينما يغامر بالقاء نفسه سابحاً بين أمواج النيل الأزرق، ومتحملاً شبح الغرق المخطر، وبانطلاقة الشباب الفياضة بالقوة والحيوية، ليس يدفعه شيء وهو يخاطر بنفسه إلا المشاركة الوجدانية النابضة بانتصار النجاشي الوفي لهم، وبالتالي إيصال الخبر السريع إلى المسلمين... في احتمالاته المتناقضة، ففي حالة انتصار النجاشي وهو ما يتمنوه ففي ذلك خير وسرور لأن ذلك يجلب لهم الخير والبركة والأمان... وفي حالة فقدان النجاشي لملكه وظهور عدوه وهو ما يكرهونه... فإذا أتى مُخبرهم الزبير بذلك... يجتمعون لكي يدبروا لهم أمراً ناجعاً أو قراراً مدروساً أو مسعى جديداً على هداه يخرجون الى نتيجة صائبة. ولكن فشل عدو النجاشي كما قلنا... أثلج صدور المسلمين وأبعد عنهم المفازع والوساوس والاحتمالات المتعددة.

وبعد رجوع المسلمين من ديار الهجرة ـ الحبشة ـ وذهابهم الى مكة، كانت قريش والكفار لا يزالون يزيدون في عنفهم لمحمد ﷺ وأصحابه الذين

---

(١) الوفا باحوال المصطفى ص ٥١٩ ج ٢ الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.

معه، ثم عمت اضطهاداتهم مرة ثانية وبضراوة، على الذين رجعوا من الحبشة، واشتدوا عليهم جميعاً، بدون رحمة، ولم يتجاوبوا مع تعاليم الاسلام وأغلقوا آذانهم وقلوبهم في تلبية نداء محمد ﷺ، وقابلوه وأصحابه بالاساءة والأذى والشتم والعذاب.

الهجرة إلى المدينة

ولما وجد محمد ﷺ أن لا فائدة من البقاء في مكة المكرمة، وليس ذلك في صالح قضيته، فصمم الهجرة الى المدينة وكانت تسمى آنئذٍ (يثرب) لكي يتخذها قاعدة جديدة لنشر الإسلام، بعدما وثق من إيمان الأنصار بدينه،.. ولذلك أمرهم بالهجرة إليها، فتهيأ المسلمون، وأخذوا يهاجرون الى هناك، وكان من ضمنهم الزبير بن العوام رضي الله عنه.

وكان الرسول ﷺ، قد آخاهم فيما بينهم قبل رحيلهم من مكة إلى المدينة، .. ثم لما وصـل المسلمون الى المدينة، ولحقهم الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بعد ذلك، استقبلهم الأنصار استقبالاً عظيماً، فأول ما عمله ـ ﷺ ـ أنه وسع قاعدة الأخوة، فآخى بين الأنصار والمهاجرين، وكل ما يهمنا في ذكر هذين النوعين من الأخوة التي اقتضتها الحكمة النبوية الرشيدة، هو ذكر سهم الزبير بن العوام من هذه الأخوة المباركة، وقد ذكر ذلك مؤلف كتاب أسد الغابة، وذلك ان الزبير بن العوام «آخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود، لما آخىٰ بين المهاجرين بمكة، فلما قدم المدينة، وآخىٰ رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، آخىٰ بينه وبين سلامة بن وقش»[1].

حسد اليهود تآخي المسلمين وانصهارهم، فأخذوا لا ينظرون اليهم بعين الراحة، وراقبوا حركاتهم وخطواتهم وحسبوا لها آلاف الحساب،... وشاعت

(١) الطبقات الكبرىٰ لأبن سعد م ٣ ص ١٠٢ ابن سعد وكذلك أسد الغابة ص ١٩٦ ج ٢ .

الأقدار أن نساء المدينة لم يولد لهن، مما جعل اليهود يشمتون بذلك، . . . ولكن كم كانت فرحة الرسول ﷺ، والمسلمين معه، جميعاً، لما ولدت أسماء زوجة الزبير بن العوام، بابنها عبدالله بن الزبير، وقد أخزى الله اليهود واليهوديات، وخابت آمالهم المتمرغلة بالشر والحقد والبغض، وها هي القصة ترويها أسماء بنت أبي بكر، الصديق، بنفسها للتأريخ حيث تقول بأنها حملت بعبدالله بن الزبير بمكة، وأنها بعد هجرتها الى المدينة، نزلت بقباء، فولدته إلى أن تمضي قائلة. . . «ثم أتيت رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي ﷺ، ثم حنكهُ بالتمرة، ثم دعا له، وبارك عليه»[1]. ثم مسحه وسماه عبدالله[2]، ثم تنهي أسماء قولها: «ففرحوا - الرسول والمسلمون - به فرحاً شديداً، وذلك أنهم قيل لهم، ان اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم»[3].

الزبير في المدينة

بذل الزبير جهوداً كثيفة ومستمرة، مع صاحب الدعوة، وجماعته في الأيام الأولى من عمر الدعوة الإسلامية، ثم ما تلتها من أيام، من أجل إنجاح الحركة الإسلامية وإخراجها الى دنيا الواقع، كما يريد الله، وفرضها على الوجود الجاهلي المهترىء والمهلهل، . . . فهو كما نعلم منذ اللحظات الأولى لإسلامه، تعرض لتهديدات عمه، وتعذيبه له، ثم لضغط أهل مكة المتواصل والمتسم بالقسوة والعنف والشدة العويصة، . . . وعندما هاجروا إلى المقر الجديد، والقاعدة الجديدة، لبثّ الحركة. . . تطورت طبيعة وجودهم هناك، الى المواجهة والقتال دفاعاً عن النفس والعقيدة، فصارت أيديهم لا تفارق سيوفهم، . . ولازمتهم الحيطة والحذر من مؤامرات قريش واليهود.

---

(١) الأصابة في تمييز الصحابة جـ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) الاصابة في تمييز الصحابة جـ٢ ص ٣٠٤ كذلك .

(٣) الإستيعاب في معرفة أسماء الصحابة - للقرطبي جـ ٢ ص ٢٩٣ .

وكانت ساعاتهم آنئـذٍ عصيبة، وآمالهم متوثبة، وكان لا بد من الشجاعة والإقدام، والاستعانة بقوة الفرسان وهمة الأبطال، لتحطيم أسطورة الواقع الجاهلي السقيم، وغرس المبادىء الانسانية والفضائل الأخلاقية الإلهية، وإعادة التوازن الصحيح لقيمة الإنسان في ظل هذا الدين السماوي القيم.

وكان للزبير بن العوام جولات وصولات لا ينكرها له التاريخ، وأصبح يُضرب به المثل في تفانيه في الله وطاعة القائد في جميع الغزوات والمواقع.

جاء في أسد الغابة عنه في هذا الصدد أنـه حضـر جميع المعارك المشهورة مع رسول الله ﷺ «أحداً، والخندق، والحديبية، وخيبر، وبدر، والفتح، وحنيناً، والطائف»[1].

وقد ساعدته في البروز والظهور في هذه المواقف العظيمة المليئة بالملمات والشدائد والمخاطر، شجاعته الفذة، وقوته الفائقة، وإرادته الصلبة، وهذه الرواية التي نسوقها الآن والتي نستشهد بها في هذه المناسبة من الكلام، تعزز لنا صحة ما نقول والتي وردت في العقد الفريد كما يلي:

«الزبير بن العوام، أحد السابقين الأولين، وأحد الأبطال المشاهير في الجزيرة العربية،.. قيل له مرة وقد ضرب عدوه بسيفه ضربة قسمته نصفين: ما أحدَّ سيفك؟، فغضب وقال: ليس السيف، ولكن اليد التي ضربت به»[2].

أقول وهل بعد هذا الوصف لشجاعته وقوتها من ريب؟ سيما وهو أعرف الناس بنفسه عن مقدار همته وخطورة ضرباته التي يكيلها للخصم في ساعات اللقاء، أو أثناء ملاحقته للعدو في ساحات الوغى والقتال أو في لحظات المبارزة.

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) التأريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، الدكتور أحمد شلبي ج ٢ ص ٢٠٣ نقلاً عن العقد الفريد ٢١٢/١ .

وكان دوره في جميع المشاهد المذكورة، دور الأسد الرابض، والجندي المخلص لقائده وعقيدته...

ولا يُنكر أن به وبأمثاله انتصر الاسلام وعلت راياته في الآفاق والأصقاع من الأرض.

ومما نتوج به كلامنا في هذا المقام قول الرسول ﷺ «الزبير بن العوام، ركن من أركان الاسلام»، وكلامه ﷺ هذا يحتوي على معنى عميق وتحليل واضح وإشادة صريحة وشهادة حقة من الرسول ﷺ، لما أبداه الزبير في سبيل الله ورسوله ودينه وأمته، وما كان يتحمله من جهد ومشقة في حياته من أجل مبادئه. ومما يجب ألا يغيب عن البال ونحن نتكلم عن إقامة الزبير مع النبي والمسلمين في المدينة، هو أن نذكر مكانته القيادية الجديدة التي تبوأها... فقد كان الزبير بن العوام.. في عهد الرسول ﷺ أحد الرجال البارزين في الاسلام الذين يُعتمد عليهم في المهمات، المرتبطة بالدفاع عن النبي ﷺ، وعن مبادىء الاسلام، وتنفيذ الواجبات المكلف بها على أحسن ما يرام.

الحروب والغزوات الاسلامية ودور الزبير فيها

للزبير بن العوام مواقف جليلة وخالدة، في معارك الجهاد من أجل إعلاء راية المبادىء الاسلامية بزعامة الرسول العظيم، والتأريخ يشير له بالفضل الكثير، والمكانة المرموقة، والبطولة الحقة... ويشهد له بالمجد والبطولات النادرة والمقدامة التي بذلها في اللحظات المناسبة في تأريخ الأمة العربية، سواء في جبهات الحجاز في عهد الرسول ﷺ، أو في جبهات فتوحات الشام، ومصر في عهد الخلافة الراشدة، ضد السيطرة الأجنبية، بله عنك أدواره الأخرى البارزة في بقية المواقف المشهورة، كدوره الكبير في تعزيز نصر المسلمين في اليرموك في بلاد الشام، ودوره القيادي في فتح مصر، حيث كان قائد جيش المدد، وعلى يده تم الاستيلاء على معاقل الاستعمار الروماني، وهو الشخصية الثانية في فتوحات القطر المصري، بعد شخصية القائد عمرو بن العاص، ومواقفه العسكرية هناك عديدة، يذكرها المؤرخون، بتوسع عند تناولهم موضوع فتوحات مصر.

والآن لندرس معاً وبالتسلسل جميع المعارك النضالية التي تشهد للزبير بالإخلاص والسعي في إحراز النصر، وحشد وتجنيد طاقته في سبيل دفع الحركة الإسلامية الى الأمام وضرب أروع الدروس في التعاون العسكري اللازم في ساحات الوغى في القيادة التي يعمل تحت رايتها وفي صفوفها والتي يلعب فيها أدواراً بطولية فذة وصائبة... وذلك ما رأيناه له في كل الحروب والغزوات الاسلامية التي شارك فيها.

١ ـ معركة بدر عام ٢هـ ٦٢٤م(١).

التقى جيش الكفار وعددهم ٩٥٠ محارباً مع جيش المسلمين وعددهم ٣١٤ مقاتلاً، عند موقع ماء يعرف بـ «بدر» في السابع عشر من رمضان، وكان النصر فيه للمسلمين «. . . وكان الزبير بن العوام يُعلّم بعصابة صفراء، وكان يحدّث ان الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بُلق عليها عمائم صفر، فكان على الزبير يومئذ عصابة صفراء»(٢).

ويورد الجاحظ الخبر نفسه في كتابه البيان والتبيين فيقول «وكان حمزة يوم بدر معلماً بريشة نعامة حمراء، وكان الزبير معلماً بعمامة صفراء»(٣). وجاء في هذا الصدد . . . «وقيل كان على الزبير يوم بدر ريطة صفراء معتجراً بها، فقال النبي ﷺ، : إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير»(٤) وفي رواية أنه «لم يكن مع النبي ﷺ، يوم بدر، غير فرسين أحدهما للزبير»(٥). وجاء أيضاً عن مواقف الزبير في معركة بدر : رواية عن عروة «كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف كنت أدخل أصابعي فيها : اثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك»(٦).

وعن ابن عباس عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه انه قال له : «ما كان معنا، إلا فرسان، فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود يعني يوم بدر»(٧).

ويظهر لنا من شتى الروافد الروائية التي استقيناها من بطون الكتب، أن

---

(١) موجز تاريخ العرب والإسلام الدكتور حسين قاسم العزيز ص ١٢٩ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الأولى ١٩٧١ .
(٢) الطبقات الكبرى م ٣ ص ١٠٣ .
(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٩٨ ، طبعة بيروت في ١٩٦٨ .
(٤) الطبقات الكبرى م ٣ ص ١٠٣ .
(٥) الطبقات الكبرى م ٣ ص ١٠٣ .
(٦) الإصابة في تمييز الصحابة جـ١ ص ٥٢٧ .
(٧) موضح أوهام الجمع والتفريق جـ٢ ص ٣١٣ ، حيدر أباد الدكن ط ١ ١٩٦٠ .

دور الزبير بن العوام، كان مشهوداً ويدل على ذلك الرواية التالية:

قال الزبير بن العوام: «أتيت يوم بدر عبيد بن سعيد العاصي، وهو مدجج لا يُرى إلا عيناه، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه، فمات»[1].

وجاء في سيرة الرسول فيما يتعلق بغزوة بدر أن الرسول ﷺ، عقد ثلاثة ألوية وبات الفريقان قريبان ولا يعلم أحدهما بالآخر، وأرسل رسول الله ﷺ، علياً والزبير وجماعة يتجسسون على الماء، فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم، فأسروهم وأفلت بعضهم...، وقمين بنا أن نعلم أن فن التجسس على العدو من أهم المهمات التي يستعين بها القائد الناجح على من يعتمد على شخصيته وشجاعته ومؤهلاته وإخلاصه، إذ بحسن تدبيره في ذلك يتوقف كسب النصر وتجنب فداحة الخسارة، والتخلص من الاحتمالات السلبية المتعددة.

وأشهر من قتل الزبير بن العوام يوم بدر أبا ذات الكرش والسائب بن السائب.

قال الرسول ﷺ: «لن يلج النار أحـدٌ شهد بدراً والحديبية»[2].

والزبير ممن شهـد بدراً والحديبية، وهو أحد من يشمله السهم الأكبر لهذا التعميم المبارك... ويكفيه هو ومن شهـد بدراً والحديبية هذه التزكية النبوية الشريفة.. التي منحها لهم الرسول وبشرهم بها...، تثميناً لدورهم، وتقديراً لجهودهم، لنصرة دين الله، والتمكين له في السيادة على الجاهلية.

٢ ـ معركة أحد عام ٣هـ

بعد انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى، عادوا جميعاً وعلى رأسهم الرسول ﷺ الى المدينة فرحين...، (ومعهم الغنائم والأسرى... وكان لبدر

---

(١) التاريخ الكبير/ البخاري/ ق ١ جـ٢ ص ٤٠٩ـ ٤١٠.
(٢) الاستيعاب في معرفة الصحاب جـ٢ ص ٥٦٢

أهمية كبرى، لأنها كسرت أسطورة بأس قريش وجعلتهم يشعرون بتعاظم شأن المسلمين وخطر تهديدهم المباشر لعصب حياتهم الاقتصادية، لهذا فكروا بإنزال ضربة ماحقة بالمسلمين، تمحو آثار هزيمة بدر، وتفتح الطريق أمام قوافلهم لتسير نحو الشمال بأمان...)[١]... «ولهذا أعدوا العدة بعد عام (شوال ٣هـ، آذار ٦٢٥م) من (١٠٠٠) ألف فارس، بكامل دروعهم، و(٣٠٠٠) ثلاثة آلاف من المشاة ومعهم النساء للتشجيع، ويقود الجميع أبو سفيان صخر بن حرب زعيم بني أمية»[٢].

وقد حرص الرسول ﷺ على تقسيم المسؤولية بدقة وحرص وتنظيم جيشه قبل المعركة، وأكد «على احتفاظ صفوف الجيش بمواقعها وانتظار إشارته»[٣].

والتفت الى الرماة على الجبل وحذرهم بصورة خاصة بعدم النزول، وعدم ترك أماكنهم، لحماية ظهر جيش المسلمين لكنهم (تركوا مواقعهم عند أول فوز، مما أتاح لخالد بن الوليد أن ينقض على جيش المسلمين، وينزل به ضربات موجعة ذهب ضحيتها شهداء، من بينهم الحمزة عم النبي ﷺ... ورغم فوز قريش إلا أن المسلمين سرعان ما استعادوا تنظيم قواهم)[٤]. من جديد. وبروح انضباطية عالية.

جاء في كتاب تاريخ خليفة بن خياط ما يتعلق بمعركة أحد ودور الزبير فيها، «حدثنا بكر عن ابن اسحق ووهب عن أبيه عن ابن اسحق عن الزهري ويزيد بن رومان وغيرهما:

إن رسول الله ﷺ، خرج عشية الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال (٣هـ). وكانت الوقعة يوم السبت للنصف من شوال.. حدثنا علي بن محمد

---

(١) موجز تاريخ العرب والإسلام د حسين قاسم العزيز ص ١٢٩ .
(٢) موجز تاريخ العرب والإسلام د حسين قاسم العزيز ص ١٣٠ .
(٣) موجز تاريخ العرب والإسلام د حسين قاسم العزيز ص ١٣٠ كذلك .
(٤) موجز تاريخ العرب والإسلام كذلك ص ١٣٠ .

بن أبي سيف عن سلام بن أبي مطيع عن قتادة: عن سعيد بن المسيب قـال: كانت راية رسول الله ﷺ مرطاً أسود من مراجل كان لعائشة. وراية الأنصار يقالا لها: العُقاب.

وعلى ميمنته علي بن أبي طالب، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو الساعدي، والزبير بن العوام على الرجال»(١).

ويروي لنا التاريخ أنه جاء عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «عرض رسول الله ﷺ، سيفاً، يوم أحد، فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟

قلت: أنا يا رسول الله! فأعرض عني.

ثم قال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟

فقام ابو دجانة سماك بن فرشة (رضي الله عنه) فقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فما حقه؟ قال الرسول ﷺ: «أن لا تقتل به مسلماً، ولا تغر به عن كافر»، قال: فدفعه، وكان إذا أراد القتال أُعلم بعصابة.

قال الزبير: قلت لأنظرن اليه كيف يصنع!

قال: فجعل لا يرتفع له شيء إلا حنكه وأفراه»(٢).

وعن ابن هشام كما في البداية قال: حدثني غير واحد من أهل العلم: ان الزبير بن العوام قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف، فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة (رض) وقلت أنا بن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمتُ إليه، وسألته إياه قبله، فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع؟ فأتبعته، فأخرج عصابة حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار:

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط رواية بقي بن مخلد [ت ٨٥٤/٣٤٠] تحقيق سهيل زكار/ دمشق/ سلسلة احياء التراث القديم (رقم ١٧).

(٢) سيرة بن هشام ج ١ في موضوع معركة احد وحياة الصحابة ج ٢ ص ٥٧٦.

«أخرج أبا دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول إذا تعصب. . فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول ... أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان في المشركين، رجل لا يدع جريحاً إلا نفض عليه (أجهز عليه وأماته)، فجعل كل منهما، يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة (رض) فأتاه بدرقة فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة - رضي الله عنه - فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت الله ورسوله أعلم»[1].

وفي رواية أخرى مسنودة أيضاً الى الزبير في التعليق على خروج أبي دجانة قوله. . . «فخرج واتبعته، فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه (أي شقه) وحنكه حتى أتى نسوة في سفح الجبل ومعهن هند وهي تقول:

نحن بنات طارق ... نمشي على المفارق
والمسك في المفارق ... ان تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

قال: فحملت عليها، فنادت بالصحراء، فلم يجبها أحد، فانصرفت عنها. فقلت له: كل صنيعك رأيته فأعجبني، غير أنك لم تقتل المرأة. قال: فإنها نادت فلم يجبها أحد، فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ، امرأة لا ناصر لها»[2].

ونترك للقارىء الكريم قياس شعور الزبير حين يقوم لرسول الله ﷺ،

---

(١) حياة الصحابة جـ٢ ص ٥٧٧ .
(٢) حياة الصحابة جـ٢ ص ٥٧٥ - ٥٧٦ .

يطلب منه السيف، ويعطيه الرسول لأبي دجانة، بمرأى ومسمع منه،.. ثم ما يتركه هذا الأثر من انطباع وفعالية ومتابعة للنتائج... الى آخر الصورة الذهنية والنفسية، التي تتعاقب في خيال القارىء حين قراءة هذه الرواية، وكأنه ينظر الى الزبير وهو أمامه، وعلى ملامحه مرتسمة هذه الحالات،... ثم ما يتصوره بعد ذلك في الحكم على شجاعة الزبير وإخلاصه ومدى بذل التضحية في جيش الرسول ﷺ.

والآن لنتابع مستمرين في مرافقة الزبير وملاحظة جولاته وتسجيل صولاته في معركة أحد... حيث يمثل في أحد، أحدّ أبطال وأقطاب جيش الرسول ﷺ، لما كان يتصف به من شمائل الجرأة والاقدام والعنف الحربي في القتال. فيقول لنا ابن منظور: «وكان رسول الله ﷺ، قد أمر الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ على الخيل، ومعه يومئذ المقداد الكندي، وأعطى رسول الله ﷺ، اللواء رجلاً من قريش، يقال له مصعب بن عمير، وخرج حمزة بن عبد المطلب بالجيش، وأقبل خالد بن الوليد الى خيل المشركين ومعه عكرمة، فبعث رسول الله ﷺ وقال: استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه حتى أوافيك، وأمر طائفة أخرى، فقال: كونوا من الجانب الآخر حتى آذنكم. وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزى، فأرسل النبي ﷺ الى الزبير أن يحمل، فحمل على خالد بن الوليد، فهزمه الله تعالى ومن معه، فقال تعالى «ولقد صدقكم الله وعده».. الى قوله «من بعد ما أراكم ما تحبون»، فالله وعد المؤمنين أن ينصرهم وأنه معهم، وبعث رسول الله ﷺ ناساً رماة، من أهل البأس، فكان من ورائهم، وقال لهم «كونوا ها هنا فردوا وجه من فرّ منا وكونوا حرساً لنا من قبل ظهورنا»(١).

ثم شد الزبير والمقداد بن الأسود الكندي على المشركين فهزماهم، وحمل النبي ﷺ، فهزموا أبا سفيان(٢).

---

(١) مختار الأغاني في الأخبار والنهاني/ ابن منظور ج ١ ص ٣٦٨.
(٢) مختار الأغاني في الاخبار والتهاني/ ابن منظور ج ١ ص ٣٦٨ كذلك.

ولـكن قسماً من الرماة غلبتهم نشوة الظفر، فتركوا أمكنتهم ونزلوا ليحاربوا مع جيش الرسول ﷺ الذي التحم مع الكفار في معركة ضارية. . . حين ذاك فطن الكفار وخالد بن الوليد، الى قمة الجبل، ورأوا قلـة الرماة، فصاح في خيلـه ثم حمل فقتل الرماة وحمل على أصحاب النبي ﷺ وهزموهم(١)

قال الزبير بن العوام، معللاً سبب خسارتهم، وعدم كسبهم النصر في معركة أحد «لقد رأيتني أنظر الى هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات، هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير [حتى رأيت خَدَماً بساقيها] [وهذه إضافة في رواية خليفة بن خياط]. . . إذ أمالت الرماة الى العسكر، حتى كشفنا القوم، وانهزموا يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا أن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ القوم علينا، بعد أن أصبنا اللواء [وفي رواية خليفة بن خياط ـ بعد أن أصبنا أصحاب اللواء]، حتى ما يدنو إليه، أحد من القوم»(٢).

يذهل النبي ﷺ، ويذهل المسلمون جميعاً بخسارة المعركة بسرعة خاطفة، فأخذوا يتفقدون قتلاهم وإذا بهم يواجهون بطل العرب والاسلام وقريش سيدنا الحمزة بن عبد المطلب، شهيداً، فيتأسفون أشد الأسف ويتأسف النبي ﷺ، وعلي والزبير، أكثر مما يوصف، وتتأسف عليه صفية من الأعماق، وتندفع هذه الشقيقة المخلصة الحنونة لرؤ يته وهو مسجى على الأرض، فيبعث رسول الله ﷺ، زبيراً، لمنعها من ذلك لئلا تفاجأ بفقدان عقلها عند رؤ يتها له، لكنها لا تأبه، بكلام الزبير، ثم يرخص الرسول باخلاء سبيلها، فتلقي عليه النظرة الحاسرة. . . تلك النظرة الوداعية الوادعة الملوعة. . . ثم تجيء

---

(١) مختار الأغاني في الأخبار والتهاني/ ابن منظور ج ١ ص ٣٦٩.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٣٠ ـ ٣١. كذلك مختار الأغاني في الأخبار والتهاني لأبن منظور ج ١ ص ٣٦٩.

بعد ذلك بكفن، وتصلي عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر النبي ﷺ، به، فدفن، طيب الله ثراه، مع شهداء أحد».

ذكر يونس عن ابن اسحق ان طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار حامل لواء المشركين يوم أحد، دعا الى البراز، فأحجم عنه الناس، فبرز اليه الزبير بن العوام رضي الله عنه فوثب حتى صار على جمله، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه، وذبحه بسيفه، فأثنى عليه الرسول ﷺ، وقال: «إن لكل نبي حوارياً و حواري الزبير»، وقال: «لَوْ لَمْ يبرز اليه أحد، لبرزت أنا إليه، لما رأيت من إحجام الناس عنه، كذا في البداية، ج ٤»[١].

هذا هو حاصل ما نتوقف عنه، في استسراد دور الزبير في معركة أحد، وأخص ما يجذب نظرنا اليه ويستحق تثميننا وتثمين التأريخ له، هو ثقة الرسول ﷺ المحكمة بشجاعته، حيث يجعله في المقدمة، في إزاء جيش العدو، ويلقي الهزيمة بجيش الكفار، بقيادة خالد بن الوليد، قبل خسارة المسلمين، والذي كان سببها نزول الرماة من الجبل.

وآخر ما نختتم به قولنا في هذا الصدد والذي إن دلَّ على شيء فإنما يدل على نقاء إيمان الزبير وإخلاصه للعقيدة، وحبه للرسول ﷺ، وهو ملازمته للرسول ﷺ، يوم أحد، والثبوت معه، ومبايعته له على الموت[٢]. ولقد صدق بوعده، وبقي مع الرسول ﷺ محامياً عنه، وناصراً له، ولم يتركه.

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ج ١ ص ٢٠ طبعة ١٩٦٨، دار الطباعة مصر.
(٢) الطبقات الكبرىٰ ج ٣ ص ١٠٤.

غزو الأحزاب (الخندق)
عام ٥ هـ - ٦٣٦ م

بعد انتصار الكفار في معركة أحد جهزوا ١٠ عشرة آلاف للمدينة ، معتمدين أيضاً على مساعدة اليهود هناك ، حيث كانت بينهم اتصالات سرية ضد النبي ﷺ والمسلمين ، وكان اقتراح النبي ﷺ التحصن في المدينة ، وأمر بحفر خندقٍ حول المدينة بمشورة سلمان الفارسي الذي (نقل بدوره تجربة قومه في تحصين المدن)[1] في ظل الظروف العدوانية الحرجة .

دام حصار المدينة مدة طويلة ، ضعفت في خلالها معنويات الكفار ، وقلت مؤنهم . . « وقد ساعدت الأحوال المناخية (العواصف) على بعث اليأس في قلوب الغزاة الذين شعروا بعدم جدوى حصارهم ، فانكفأوا خائبين يجرون أذيال الفشل ، وتنفس المسلمون الصعداء لما انزاح كابوس الحصار ، والتفتوا إلى مساكنيهم من يهود (بني قريظة) الذين خرقوا بنود الصحيفة وتآمروا مع الغزاة ، في تأليب القبائل ضد المسلمين فحاصروهم واستسلم اليهود على أن يحكم بمصيرهم سعد بن معاذ ، فقضىٰ بقتل رجال بني قريظة وسبي نسائهم وصبيانهم » .[2] من حمل السلاح منهم في وجه الرسول ﷺ وأصحابه .

وتعود محصلة نصر المسلمين الى عدة أسباب وعلى رأسها عبقرية الرسول ﷺ العسكرية الفذة في الأمر بحفر الخندق ، ثم اختيار الموقع الجيد ، ثم

---

(١) موجز تاريخ العرب والإسلام - حسين قاسم العزيز ص ١٣٠ - ١٣١ .
(٢) موجز تاريخ العرب والإسلام - حسين قاسم العزيز ص ١٣١ .

الطاعة العمياء لأوامر القائد المقرونة بالتعاون والحيطة والحذر من دسائس الاعداء ، بالإضافة الى تمكن الرسول ﷺ من إثارك الشكوك بين نفوسهم وزعزعتها .

ولا يغربن عـن البال ، ما كان في صالح المسلمين جداً في النصر ، في هذه المعركة ، وفي تلك الحالة ، ألا وهو هيجان الرياح واهلاكها لماشيتهم ، وخلع خيامهم ، فضلاً عن انتشار الامراض بينهم ، كل تلك العوامل عاقتهم عن الاستمرار في حصار المدينة ، حيث رفعوه ، وبذلك زالت عن المسلمين حراجة هذا الغزو الخطير على المدينة ، من قريش من الخارج ، بالاشتراك مع دسائس اليهود من الداخل .

وهذه لقطات تاريخية مستوحاة ، من بطون الكتب الأساسية في موضوع التأريخ ، تشيد بمواقف الزبير الرائعة المقدامة ، في هذاالبلاء المتمثل بحصار أسود ، متأسسٍ على الغدر والحقد ، وقائم على العدوان وأخس درجات الشر .

جاء عن عبدالله بن الزبير : « جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم ومعي عمر بن أبي سلحة ، فجعل يطأطىء لي، فأصعد على ظهره ، فأنظر . قال : فنظـرت الى أبي وهو يحمل مرة ها هنا ومرة ها هنا ، فما يرتفع له شيء إلا أتاه ، فلما أمسىٰ جاءنا إلى الأطم . قلت : يـا أبتِ رأيتك اليوم وما تصنع !

قال : رأيتني يا بني ؟

قلت : نعم .

قال : فدىً لك أبي وأمي . هكذا في البداية ج ٤ ص ١٠٧ » .[١] .

وذكر يونس عن ابن اسحق قال : خرج نوفل بن عبدالله بن المغيرة

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٥٦٦ ، و٥٦٧ و٥٦٨ .

المخزومي في يوم الخندق ، فسأل المبارزة ، فخرج اليه الزبير بن العوام، رضي الله عنه ، فضربه فشقه اثنين حتى فلّ سيفه فلّاً ، وانصرف وهو يقول :

اني امـرؤ أحمي وأحتـمي عن النبي المصـطفى الأمـي [1]

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ في يوم الأحزاب : مـن ياتيني بخبر القوم ؟

فقال الزبير : أنا .
فقال : مـن يأتيني بخبر القوم ؟
فقال الزبير : أنا
فقال : مـن يأتيني بخبر القوم ؟
فقال الزبير : أنـا .

فقال النبي ﷺ :ان لكل نبي حوارياً وأنا حواري الزبير[2] .

وعن جابر بن عبدالله كذلك ، قال : ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق ، من يأتيه بخبر قريظة، فانتدب الزبير ، ثم ندبهم ، فانتدب الزبير ، ثم ندبهم الثالثة ، فانتدب الزبير ، فأخذ بيده ، وقال : ان لكل نبي حوارياً وحواري الزبير[3] .

قال « عبدالله بن الزبير : قلت لأبي يوم الأحزاب قد رأيتك يا أبتِ تُحمل على فرس أشقر ، قال الزبير : قـد رأيتني يا بني ! قلت : نعـم ، قال : فان رسول الله ﷺ حينئذٍ جمع لي أبويه يقول : فـداك أبي وأمي[4] .

(١) حياة الصحابة جـ١ ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ عن البداية جـ ٤ ص ١٠٧ كذلك.
(٢) الطبقات الكبرىٰ م ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٣) الطبقات الكبرىٰ م ٣ ص ١٠٦ .
(٤) الطبقات الكبرىٰ م ٣ ص ١٠٦ كذلك .

وجاء في كتاب جامع الأصول في أحاديث الرسول للشيخ منصور علي الناصر من علماء الأزهر :

وعن عبدالله بن الزبير قال : كنت يوم الأحزاب ، جُعلتُ أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء ، فنظرت فاذا أنا بالزبير ، على فرسه ، يختلف الى بني قريظة ، مرتين أو ثلاثاً ، فلما رجعت ، قلت : يا أبتِ رأيتك تختلف الى بني قريظة ، قال : وهل رأيتني ؟ قلت : نعم قال : كان رسول الله ﷺ قال : «من يأتيني بني قريظة فيأتيني بخبرهم ،فانطلقت فلما رجعت : جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، وقال : فداك أبي وأمي »[1] .

وجاء في كتاب « تهذيب تاريخ بن عساكر ٣٥٩/٥ . . . لما كان يوم قريظة برز رجل من اليهود يصيح : من يبارز ؟ فبرز اليه محمد بن مسلمة ، فقتله اليهودي وكانت معه حربة يحوش بها المسلمين حوشاً ، فبرز له علي - رضي الله عنه - ، فقال له الـزبير : أقسمت عليك ألا خليت بيني وبينه ؟ فبرز اليه الزبير فقتله ، فقال له النبي ﷺ : « لكل نبي حواري وحواري الزبير » .

من كل هذه الروايات نستنتج اننا أمام شجاع قدير ، ومتمكن من إصابة أهداف مؤكدة ، وإزاحة كل ما يواجهه ويواجه المسلمين ، من عراقيل العدو ومتأهلاته الحربية ، ولم نجد خلال دراستنا لهذه الروايات التاريخية من مظانها الصحيحة ، وما سبقتنا من الروايات الماضية ، أي تخلخل في شجاعة الزبير ، أمام جميع من قابلوه من الأعداء أو نازلوه في المعارك . . .

ولا ننسى ان الشجاعة الخارقة التي كانت كامنة في قوته وفي قوة اخوته المسلمين ، ما كانت تسخر لمطامع ولا مغانم ولا مكاسب ، وإنما كانت مجهزة ، لتغيير اعوجاج الجاهلية البشرية والالحاد ، نحو الخط المستقيم . . .

---

(١) جامع الاصول في أحاديث الرسول/ للشيخ منصور علي الناصر من علماء الأزهر .

وكذلك الى النور . . . الى طريق الحق والانسانية ، ومن اجل اقرار النظم الالهية الخالدة ، التي ترمي الى تحقيق حياة سعيدة ، يتنعم في ظلها المخلصون ، ويفوز في غمارها العاملون ، وهي بلا شك تقرر للانسان ، الحرية والكرامة والحقوق المشروعة وتحديد الواجبات المناطة به ، والقيم الفاضلة والمثل النبيلة ، بالاضافة الى إطلاق قواه الايجابية في صنع المستقبل الجيد ، وتنشيط توازنه من التحرر من قيود العُتمة ووثنية التحجر المادي المجحفة . . الى آفاق الخير والرفاهية والعزة .

الزبير في خيبر ٧ هـ - ٦٣٨ م

وكذلك شارك الزبير في خيبر ، ومن جملة ما سجله لنا التأريخ انه بعد أن قتل مرحب اليهودي خرج أخوه ياسر اليهودي يثأر لأخيه ، فقتله الزبير بن العوام رضي الله عنه ،(١) وعندئذٍ ضعفت روح اليهود المعنوية وساد الذعر بينهم وعم الخوف في افئدتهم .

« قال ابن اسحق ، أقام رسول الله ﷺ ، بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم الى خيبر » .... وافتتح رسول الله حصونهم ، حصناً ، حصناً ، فكان أول حصن لهم أفتتح ، حصن ناعم ثم الغموّص حصن ابن أبي الحقيق ، فاصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا منهن صفية بنت حيٍّ بن أخطب ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، وكان آخر ما افتتح من حصونهم : الوطيح ، والسلالم . حاصرهم بضعاً وعشرين ليلة وقال ابن اسحق أيضاً : فحدثني عبدالله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل أحد بنى حارثة : عــن جابر بن عبدالله قال : فخرج مرحب اليهودي من حصنهم ، فخرج اليه محمد بن مسلمة فقتله ، ثم خرج ياسر أخو مرحب . قال بن اسحق : فزعم هشام بن عروة أن الزبير بن العوام خرج اليه فقتله(٢) .

وعند رجحان كفة الرسول ﷺ وجيشه في خيبر ، نزل اليهود على شروط عقدها عليهم الرسول ﷺ ، ... وللزبير بن العوام طرف في إحدىٰ

---

(١) دخائر العقبى للطبري ص ٢٥٢ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط/ في حوادث سنة سبع ج ١ ص ٥٠ .

القضايا ، حيث كلفه الرسول ﷺ ، بتأديب احـد اليهـود في خيبر ، بعد عقد الشروط ، وذلك بسبب نكرانه لكثرة المال المؤكدة لديه . . حتىٰ اعترف أخيراً بعد أن مسه الزبير بالعذاب . .[1] من اجل انتزاع الاعتراف منه وحصول الإقرار ، . . وفعلاً اعترف ، ودلَّهـم على الموضع الذي كان فيه المال .

ولنتابع الاخبار عن ذلك ، من أولها إلى آخرها : قال حمادة بن سلمة ، أخبرنا عبدالله بن عمر عن نافع بن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم الى قصرهم فغلب على الزرع والأرض والنخل . فصالحوه على أن يجعلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء وشرط عليهم « ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً ، فان فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد » . . . فغيبوا مسكاً فيه مال وحلّي ، لحي بن أخطب كان احتمله الى خيبر حين أجليت النضير ، فقال رسول الله ﷺ لعم حي بن أخطب « ما فعل مسك حيّ الذي جاء به من النضير ؟ » قال : « أذهبتهُ النفقات والحروب » ، قال : « العهد قريب والمال اكثر من ذلك » ، فدفعه رسول الله ﷺ الى الزبير فَمَسَّهُ بعذاب وكان قبل ذلك خَربة ، فقال : « قد رأيت حيّاً يطوف في خربة في ها هنا » فذهبوا ، فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة »[2] .

وفي المناسبة ان الفقيه ابن الجوزية يعلق على هذه القضية قائلاً : « ففي هذه السنة الصحيحة : الاعتماد على شواهد الحال والامارات الظاهرة وعقوبة أهل التهم وجواز الصلح على الشرط وانتقاض العهد اذا خالفوا ما شرط عليهم »[3] . ، وهذا يدلنا على ان تأديب المستحقين من ذوي الاتهامات الاكيدة والشبهات الصادقة ، ليست وليدة قوانين الحضارة الراهنة ، وإنما

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٩ لابن قيم الجوزية .
(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٧ ـ ٨ .
(٣) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٨ .

سبقها الاسلام في ذلك بشوط بعيد ، ولم يصلنا أيضاً بل لم نسمع قانوناً قبل الاسلام ، كالقانون البابلي أو الروماني ، ولم يرد شيء في اعراف الفراعنة خلال حضارتهم حول هذا الشأن من الاستدلال في تشخيص القضايا والمسائل ومن ثم الوصول الى النتائج المحققة لكي يأخذ الحق طريقه الى الوضوح .

ومن ناحية أخرىٰ فان المتهم الحقيقي المشكوك فيه بدرجة مطابقة للحقيقة ، وخالية من اللبس ، يبقىٰ مصراً على عدم الاعتراف ما لم يلزم بالعذاب الملح . . وفي اختيار الرسول ﷺ للزبير للحصول على الحقيقة ، حكمة نبوية صائبة ، والرسول أعلم الناس باستعمال رجاله في المواقف المعينة ، جرياً على قاعدة الرجل المناسب في المكان المناسب . . . وهذا دليل قوي على اعتماده ﷺ على الزبير وصلاحيته لذلك وتمكينهُ منه .

وقمين بنا ان نذكر ان هذا التمكين الزبيري المطبوع في معدنه هو الذي دفع بالرسول ﷺ ان يأمره ويستعين به (أي الزبير بن العوام) . . بأن يقرر اليهودي بالعذاب على إخراج المال الذي غيبه وادَّعى نفاده[1] .

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٧ .

موقف الزبير في فتح مكة سنة ٨ هـ

وفي هذه السنة ، وهي سنة ثمان افتتح رسول الله ﷺ مكة ، يقول ابن خياط في تأريخه : «حدثنا بكر عن ابن اسحق عن الزهري بن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة قال : خـــرج رسول الله ﷺ ، لعشر خلون من شهر رمضان يريد مكة » . . . وقال : «فحدثني علي بن محمد عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : افتتح رسول الله ﷺ مكة سنة ثمان من مهاجره في شهر رمضان . فأقام خمسة عشر يوماً ، ثم شخص واستعمل على مكة عتاب بن أسيد » .[١] وقــال: « حدثنا بكر عن ابن اسحق قال : بعث رسول الله ﷺ سراياه حول مكة يدعون الى الله ولم يأمرهم بقتال »[٢] .

وقد لعب الزبير دوراً مشرفاً في هذا الفتح المبين ، ألا وهو فتح مكة ، وكانت وظيفته مهمة جداً هو وخالد بن الوليد اثناء دخول المسلمين مكة ، فقد جاء في سيرة النبي محمد ﷺ : أمر رسول الله ﷺ الزبير ان يدخل مكة من أعلاها ، فيعزز رايته بالحجون ، وأمر خالد بن الوليد ان يدخل من اسفل مكة ، ونهىٰ عن القتال الا لمن قاتلهم ودخل هو من أعلى مكة . . وهذا يدل على ان الرسول ﷺ دخل مكة من اتجاه الزبير بن العوام حيث بيده الراية المكلف بغرزها بموجب أمره النبوي الشريف .

وأي دور أشرف من هذا الدور الذي يكلفه الرسول ﷺ ، به ، لولا شجاعته وقوته ومعنويته العسكرية الفائقة ، وإيمانه المتواثب . . . وان الشرف

(١) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٥٦ .
(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ٥٧ .

العسكري للزبير يتجسد في مشاركته في كل الوقائع الاسلامية وفي كل منها يحرز النصر ويلعب دور العامل الحاسم لكسب الظفر والقضاء على العدو . . . « وشهد جميع غزوات رسول الله ﷺ دون استثناء فكان في كل منها محط آمال المسلمين ، لفروسيته وجرأته وإقدامه »[1] .

يتوضح من قراءة كتاب الخراج فيما يتعلق بفتح مكة ان القريشيين نقضوا العهد المبرم بينهم وبين الرسول ﷺ في الحديبية ، وقد بلغ الرسول ﷺ غدْرهم بالعهد وعدم التزامهم بشروط الهدنة ، فأمر رسول الله ﷺ بالطرق فحبست ، ثم خرج متوجهاً الى مكة والمسلمون معه ، ففتحها الله عليه ، وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : « يا رسول الله إبعثني الى اهل مكة أرغبهم في الاسلام ، فبعثه ثم بعث في أثره ، فقال : ردوا عليّ عمي لا يقتله المشركون ، فأبىٰ أن يرجع حتى أتىٰ مكة فقال : أي قوم أسلموا تسلموا ، أتيتُم ، أتيتُم ، واستبطنتم بأشهب بازل ، هذا خالد باسفل مكة ، وهذا الزبير بأعلاها ، وهذا رسول الله في المهاجرين والأنصار وخزاعة »[2] وتنتهي قصة الفتح حين قال رسول الله ﷺ « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن » . . . وأقبل الناس الى دار أبي سفيان وأغلقوا أبوابهم ووضعوا أسلحتهم ، وأقبل رسول الله عليه السلام الى الحجر فاستلمه ثم طاف بالبيت ، وأتىٰ على صنم كان الى جنب الكعبة وفي يده قوس فأخذ بسيتها وجعل يطعن في عيني الصنم ويقول « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً »[3] .

نستشف من هذه الرواية ، ان الزبير كان على أعلىٰ مكة وان العباس بن

---

(١) سلسلة الأبطال ص ١٤ ، الزبير بن العوام .

(٢) الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر شرح وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدي ـ الجمهورية العراقية ـ وزارة الثقافة والإعلام يراجع التفاصيل في الصفحة ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣) الخراج ص ٢٦٥ .

عبد المطلب الذي هو خال الزبير ، أخذ يبعث الرعب به في قلوب أهل مكة فيها يقول : « وهذا الزبير بأعلاها » ، فلو لم يعرف العباس وكذلك يعرف القريشيون قدر الزبير وشجاعته لم يقل هذا . .

ومن عجيب المصادفات هنا ، ان الزبير كان في معركة أحد من أشد قواد المسلمين وأقواهم في المعركة في كسب النصر في البداية وقد كلف بمقاتلة خالد وخيله ، . . . ولكنه الآن يحارب معه جنباً مع جنب ، بل لا نبالغ اذا قلنا انهما أصبحا ، أبرز الرجال في هذا الفتح العظيم الذي احرزه المسلمون في مكة بقيادة النبي ﷺ .

وجاء كذلك في طبقات ابن سعد ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة ، كان الزبير بن العوام ، على المجنبة اليُسرىٰ ، وكان المقداد بن الأسود على المجنبة اليمنىٰ فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ، وهدأ الناس ، جاء بفرسيهما ، فقام رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجوههما بثوبه وقال : « أني جعلت للفرسين سهمين وللفارس سهماً فمن نقصهما ينقصه الله »(١) . . . « وكانت مع الزبير احدىٰ رايات المهاجرين الثلاث في الفتح »(٢) .

الزبير في حنين

وفي حنين كان الزبير بن العوام واضعاً رمحه على عاتقه ، عاصباً رأسه بملاءةٍ حمراء ، يذرع ميدان المعركــة يصول ويجول . . . فتفر من بين يديه الفرسان فقال قائل المشــركين : « هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا » فما زال الزبير يطاعن المشركين حتى أزاحهم عن مواقعهم(٣) . وخلخل صفوفهم وزعزعهم عن أماكنهم . أجل ! « لقد كانت هذه حال الزبير في جميع الغزوات ، يجري وراء الموت ، والموت يهرب منه ،

---

(١) طبقات بن سعد ص ١٠٤ م ٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ م ٣ كذلك .
(٣) الزبير بن العوام سلسلة الابطال ص ١٤ .

ولم يبق في جسده موضع الا وفيه جُرح ، هو بمنزلة وسام يشرف الرجل الذي نذر نفسه للجهاد في سبيل الله وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلىٰ »[1] .

مما سبق ، ذكرنا ، صوراً خاطفة للادوار والمزايا العسكرية للزبير بن العوام تحت قيادة محمد ﷺ ، ونترك للقارىء ان يقيس من خلال قراءاته لها ان يتلمس مدىٰ شجاعته ودرجة انضباطه ومن ثم ما يحرزه من اصابات مرعبة للعدو في حركاته الفعالة ، وذلك لتقوية عزيمة المسلمين ، ثم ارجوه الا ينسىٰ ملاحظة هامة وهي تركيز الرسول ﷺ في الاعتماد عليه في المهمات الشاقة ، واترك التفاصيل في صفاته العسكرية الاساسية وما تحويها من رموز ودلالات وإشارات . . للقارىء الكريم ايضاً ، والتي يستخلص منها بعد دراسته لها انها قائمة على المثل العسكرية المستندة على الطاعة والتنفيذ والتهديف والتحرك الناجز ، ممزوجة بقوة فولاذية فتاكة ، للعدو ، ومقطعة إياه ارباً إرباً ، . . اعود فأقول ثانية : اتــرك ذلك لتصورات القارىء ولاهل الاختصاص في الفنون العسكرية الذين هم أهل بمعرفة هذه الأمور اكثر من غيرهم .

---

(١) الزبير بن العوام سلسلة الابطال ص ١٥ .

تسمية من كتب له صلى الله عليه وسلم

الزبير احد كتبة الرسول

أحببت ان انقل هذا الموضوع ، لكي نعرف ان الرسول ﷺ كان يستعين به في شؤون الكتابة ، بالاضافة الى القيام بأعماله العسكرية ، فقد جاء في كتاب تاريخ ابن خياط[1] في موضوع من كتب للرسول ﷺ :

- زيد بن ثابت ، كاتب الوحي .
- وقد كتب له معاوية بن أبي سفيان .
- وكتب له حنظلة بن ربيعة الأسيدي .
- وكتب له عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، ثم ارتد ولحق بمكة .
- وكان يأذن عليه أنسة مولاه .
- وعلى نفقاته بلال .
- ومعيقب بن أبي فاطمة خازنه . ويقال : كان معيقب على خاتمه .
- وأنس بن مالك يخدمه .
- ومؤذناه بلال وابن أم مكتوم .
- وحرسه ببدر : سعيد بن زيد الانصاري .
- وحين رجع من بدر دكوان بن عبد قيس .
- وبأحد محمد بن مسلمة .
- وفي الخندق الزبير بن العوام وغيره .
- وبخيبر ليلة بني بصفية أبو أيوب .
- وبتبوك ابو قتادة .

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٧٧ ص ٧٨ .

- وقد حرسه سعد بن مالك .
- عائذ بن عمر المري .

الزبير ومهمات أخرىٰ

وهناك مهمات أخرىٰ وعمليات بارزة تكلف الزبير كذلك بأدائها بأمره ﷺ ، ومن هذه المهمات المتعددة ، أسوق للقارىء الخبر التاريخي التالي :

« جاء رجل الى قرية من قرىٰ الأنصار، فقال : ان رسول الله ﷺ ارسلني اليكم وأمركم أن تزوجوني منكم فلانة ، ولم يكن أرسله النبي ﷺ ، فارسل ﷺ ، علياً ، والزبير . فقال : « اذهٰبا فان ادركتماه فاقتلاه ولا أراكما تدركانه » ، فذهبا فوجداه قد لدغتهٰ حية »[١] .

وأخرج أبو يوسف في كتاب اللطائف عن الضحاك ان النبي ﷺ ارسل المقداد والزبير في إنزال خبيب خشبتهُ فوصلا الى التغيم فانزلاه فحمله الزبير على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء ، فنذر (فعلم) بهم المشركون ، فلما لحقوهم ، قذفه الزبير فابتلعته الأرض فسمي بليع الأرض[٢] .

بهذا القدر نكتفي ، بعرض ، عمّا امر الرسول ﷺ به للزبير ، سواء في الحروب والمعارك أو مسائل أخرىٰ، وهي كلها تعطينا فكرة كاملة عن الروح المثالية التي كان يتحلى بها ، وعن السلوكية الخلاقة التي كان ينطلق منها ويتصرف على ضوئها ،

وقد كان الزبير بن العوام في مثل هذه الحالات يتمسك بتنفيذ اوامر الرسول بسرعة تامة وطاعة لازمة وحركة فاعلة ، لانجاز الواجب على اكمل صورة وأحسن وجه .

---

(١) الخصائص : للسيوطي جـ٢ ص ٣١٤ .

(٢) كذلك الخصائص للسيوطي جـ١ ص ٥٥٣ .

اقطاع الرسول للزبير

كان الغرض من اقطاع الأرض هو إحياء الأراضي الموات ، وتشجيع الحركة الزراعية ، للمصلحة الاجتماعية . وبناء على ذلك اقتضت الحكمة النبوية في توزيع الأراضي للراغبين في زراعتها والمساهمة في توفير الانتاج الزراعي جاء في الباب السادس من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ـ في القطائع وما كان أصفاه عمر من ارض السواد ـ « أما الأرضون التي تصلح للاقطاع ، فمنها ، رواه طاوس عن النبي عليه السلام ، من انه قال : « عادي الأرض لله ولرسوله ثم هي لكم » وسئل طاوس عن قوله (لكم) ما يراد به ، قال : يقطعونه الناس ، وقال ابو القاسم بن سلام في العادي ، انه كل أرض كان لها ساكن في قديم الدهر فانقرضوا حتى لم يبق بها أحد فحكمها الى الامام ، ومثله فيما يصلح للاقطاع موات الأرض مما لم يستحيِه أحد ، وجملة الأمر ما لم يقع عليه معك مسلم ، ولا معاهد فان حكم ذلك الى الامام يقطعه من اختار ، فاما اقطاع النبي ﷺ ، الزبير بن العوام ، ارضاً ذات نخل وشجر . فان أبا عبيد القاسم بن سلام ذكر ان هذه الأرض هي التي كان سليط الانصاري عمرها ، وذلك ان رسول الله ﷺ ، كان قد اقطع سليطاً هذا ارضاً من الموات فاحياها وعمرها ، وكان اذا خرج اليها عاد فأخبر بوحي قد نزل لم يكن يعرفه ، فانطلق الى النبي ﷺ ، فاستعفاه منها ، وذكر انها تشغله عنه ، وأنه لا حاجة بها ، هذه سبيله ، فارتجعها ﷺ منه فقال له الزبير اقطعنيه يا رسول الله ، فأقطعه إياه »[1] وفي رواية تنسب الى اسماء بنت أبي بكر الصديق ان

---

(١) الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

النبي ﷺ اقطع الزبير نخلاً[1] .

وعن هشام بن عروة ان النبي ﷺ أقطع الزبير ارضا فيها نخل كانت من اموال بني النضير[2] .

وجاءت الرواية نفسها بشيء من الاضافة كما في كتاب الخراج لأبي يوسف الانصاري ، في الصفحة ٦٦ : « حدثنا هشام عن عروة عن ابيه قال : أقطع رسول الله ﷺ ، الزبير ، ارضاً فيها نخل من اموال بني النضير ، وذكر انها كانت ارضاً يقال لها الجرف »[3] .

كتاب الرسول باقطاع الزبير بن العوام

ومن ضمن ما تحرينا عليه في كتب التأريخ وثيقتين كُتبَتا على عهد رسول الله ﷺ وبأمره وبإملاء منه ، وهما تتضمنان اقطاع الرسول للزبير بن العوام ، وقد حصلنا على هاتين الوثيقتين ، من كتاب بعنوان « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » . .

نص الوثيقة الأولى[4] .

جاء في الصفحة ، ١٩٢ من الكتاب المذكور : رقم الوثيقة ٢٢٩ [اقطاع الزبير بن العوام]

« هذا ما أعطىٰ محمد رسول الله الزبير ، أعطاهُ سوارق كله أعلاه وأسفله ما بين مورع القرية الى موقتَ ، الى حين الملحمة ، لا يحاقه فيها أحد » .

(١) الطبقات لابن سعد م ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .
(٢) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٤ .
(٣) كتاب الخراج لأبن يوسف الإنصاري ، القاهرة ص ١٣٩٢ هـ المطبعة السلفية ، الطبعة الرابعة ص ٦٦ .
(٤) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ص ١٩٢ ، رقم الوثيقة ٢٢٩ .

نص الوثيقة الثانية[١] .

وهذا هو نص الوثيقة الثانية والتي وردت في نفس الصفحة ١٩٢ من الكتاب نفسه :

« هذا كتاب من محمد رسول الله للزبير بن العوام ، اني اعطيته شواق أعلاه وأسفله لا يحاقه فيه أحد » .

وصية نبوية مأثورة للزبير بن العوام وهذه وصية نبوية مأثورة قالها النبي ﷺ للزبير :

« يا زبير اني رسول الله ، للناس عامة ، واليك خاصة . أتدري ماذا قال ربكم ، حين استوىٰ على عرشه ، ونظر الى خلقه ، قال : عبـادي انتم خلقي ، وأنا ربكم ، وأرزاقكم بيدي ، فلا تتعبوا فيما تكفلتُ لكم فاطلبوا مني ارزاقكم وإليّ ارفعوا حوائجكم ، فصبوا إلي انفسكم ، أصب عليكم ارزاقكم .

أتدرون ماذا قال ربكم ؟

قال : عـبدي انفق انفق عليك ، ووسع أوسع عليك ولا تضيق فأضيق عليك ، ان باب الرزق مفتوح ، من فوق سبع سموات متواصلة الى العرش لا يغلق في ليل ولا في نهار ينزل الله فيه من الرزق على كل امرىء بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته ، من اكثر اكثر الله له ، ومن أقل أقل الله له .

يا زبـير : ان الله يحب الانفاق ويبغض الاقتار وان السخاء من اليقين والبخل من الشك ولا يدخل النار من أيقن ولا يدخل الجنة من شك .

يا زبـير : ان الله يحب السخاء ولو بفلق تمرة ، ويحب الشجاعة ولو بقتل حية أو عقرب »[٢] .

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٢) راجع نزهة المجالس جـ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

ما أودعها وما أجملها من كلمات نابضة ، وناهضة لاستجماع الشعور وجذب الاحساس ، ومخاطبة العقول الفاهمة ، . . . أجل انها كلمات عظيمة لا تصدر الا من فم عظيم ، . . كلمات الرسول ﷺ ، هذه لا يقولها جزافاً ، وحاشاه من ذلك ، وإنما يصدرها لسبب أو ظرف أو يطلقها للإفادة والتوجيه وإيضاح المشكلات ورسم الخطط الحياتية المرشدة . . . . فهو في هذه السلسلة من الدرر الناصعة يبين للزبير طلب الرزق من الله بنية صادقة صالحة ، ثم الانفاق منه واحتساب اخراج العطايا أو الصدقات منه كذلك ، حسب المقدرة والطاقة والتمكين ؛ لان ذلك يُشدد اليقين بالله ، وعكسه يولد الشك ، واليقين من أحد ركائز العقيدة ، والشك من مهدماتها ، والسخاء في حينه ولمن يستحق ومن يحتاج ، من خير الأمور المنظمة للعلاقات الاجتماعية ، ويقوي أواصرها بالاضافة الى الحصول على مرضاة الله ، وكذلك مما يحبذه الله ـ كما يظهر من هذه الوصية الشريفة ـ ويفرضه على المسلم تسخير الشجاعة لإحقاق الحق ودفع المظالم والدفاع عن الشرف والعقيدة . . . والشجاعة في هذه الحالة يجب ان تكون مسؤولية كبرىٰ ، لأنه عليها تتوقف كرامة الأمة ومثلها ومقدساتها ، ناهيك عن كرامة المجتمع وما تحقق فيه من توازن . وكذلك ما يتحقق للفرد في ظروف توافر الشجاعة القائدة ، من اطمئنان وحرية وعدالة .

وحتى قتل الحية المهددة لحياة المسلم ، أو العقرب اللعين الذي يبعث الخوف والفزع في قلب المسلم ، يعتبر من صنوف الشجاعة الواجبة ، لأن هذا النوع من الشجاعة المفروضة ما دام انه يزيل الخطر ويدفع الأذىٰ عن الناس ، فما أجدره وما اثوبه عند العمل لله .

والزبير لكونه من أخص أقرباء الرسول ﷺ يجب أن يكون من أوائل من يطبق المبادىء ، ويكون قدوة مثلىٰ لغيره من الناس . ومن هذا المنطلق المنطقي خص النبي ﷺ ، الزبير واوصاه ، وذلك بناءً على ما قاله تعالىٰ في

كتابه الكريم ﴿ وأنذر عشيرتك الاقربين ﴾[1] . وتطبيقاً عملياً لما تحويه كلماته السامية من مناهج وقوانين وأحكام وأفكار ومثل .

---

(١) القرآن الكريم .

مكانة الزبير لدى الرسول وأخباره الأخرى في عهده

كانت للزبير منزلة كبيرة ومكانة محسوسة في قلب النبي ﷺ ، وكان يحبه كثيراً ، وكان يقول له « الزبير ابن عمتي وحواري في أمتي »[1] .

وعن سعيد بن المسيب « أنه رخص للزبير في لبس الحرير » وجاءت الرواية قريبة من ذلك أيضاً وذلك عن أنس بن مالك (رض) ان النبي ﷺ « رخص للزبير في قميص الحرير » لحكةٍ كانت في جلده[2] .

كما جاء ان النبي ﷺ « لما خط الدور بالمدينة ، جعل للزبير بقيعاً واسعاً »[3] .

وكان الزبير بن العوام يقوم بالاضافة الى واجباته العسكرية ، بمهمة أخرىٰ أحياناً ، للرسول ﷺ . . . وذلك حسب الرواية التالية والتي جاءت كما يلي : « وكان الزبير بن العوام وجهم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات »[4] للرسول ﷺ .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه قال : « سمعت اذني من في رسول الله ﷺ ، وهو يقول : الطلحة والزبير جاراي في الجنة » .[5]

---

(١) الإستيعاب جـ٢ ص ٥٦١ وكذلك التاريخ الكبير للبخاري جـ٢ ص ٤٠٩ .
(٢) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٣ .
(٣) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٣ كذلك .
(٤) نور الأبصار ص ٤٨ .
(٥) جامع الأصول في أحاديث الرسول/ الشيخ علي منصور .

وجاء في كتاب الرياض النضرة في مناقب العشرة عن أبي اسحق السبيعي قال : سألت اكثر من اربعين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ، من أكرم الناس على عهد الرسول ؟ قالوا : الزبير وعلي رضي الله عنهما أخرجه الفضائلي(١) .

وتكريماً لجهوده الثمينة وشحه الرسول ﷺ بأعطر عبارة من عبارات الاستحقاق والتقدير اذ قال ﷺ « الزبير بن العوام ركن من اركان الإسلام »(٢) .

وجاء في حق الزبير كما يقول المصدر نفسه :

« وجلس الزبير يوماً يذب (بمعنى يطرد الذباب عن وجهه الكريم) عن وجه النبي ﷺ ، فاستيقظ وقال « جبريل يقرئك السلام ويقول أنا معك يوم القيامة حتى أذب عن وجهك شرر جهنم »(٣) .

وجاء في الجزء الثاني من كتاب موضح اوهام الجمع والتفريق عن قحافة بن الربيعة عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، قال : استتبعني رسول الله ﷺ ، ليلة الجن فقمت فاتبعته وما تمسكني رجلاي من العرواء كراهية ، حيث استتبعني حتى أتىٰ حيث يريد ، قال : ثم خط علي خطاً وقال : لا تبرح حتى آتيك .

قال : فأتاهم فاذا هم رجال كأمثال الرواح ، مستثغرين بثيابهم .

قال : فتلا عليهم قرآناً رفيعاً حتى طلع الفجر ثم انصرف اليّ .

فقال لي : تراهم ؟

قال ، قلت : نعم !

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة م ١ ، جـ ٢ ، ١٩٥٣ ط ٢ دار التاليف مصر ص ٣٠٤ .
(٢) نزهة المجالس جـ ٢ ص ٤٤٦ .
(٣) نزهة المجالس جـ ٢ ص ٤٦٦ .

قال ﷺ : فألــقي اليهم عظماً وروثاً[1] .

وجاء عن أمةٍ ، للزبير بن العوام (رض) انها قالت : « كان يأمرنا الرسول ﷺ اذا حمّ الزبير ان نبرد له الماء فنحدره عليه »[2] .

وعن ابن عساكر عن الحسن قال : كـــان بين عبد الرحمن بن عوف وبين خالد بن الوليد رضي الله عنهما كلام ـ وفي رواية أخرىٰ عن أبي هريرة ـ بعض ما يكون بين الناس ، فقال خالد : لا تفخر علي يا ابن عوف بان سبقتني بيوم أو يومين ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ادعــو لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً ما أدرك نصفهم .

قال : فكـــان بعد ذلك بين عبد الرحمن ، والزبير ، شيء .

فقال خالد : يا نبي الله نهيتني عن عبد الرحمن وهذا الزبير يسابه !

فقال : انهـــم أهل بدر وبعضهم أحق ببعض »[3] .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة ، ان رسول الله ﷺ ، كان على حراء ، هو ، وأبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال « اهدأ فما عليك الا نبي وصديق وشهيد »[4] .

ومما نشتمل عليه من فوائد من هذا الحديث الشريف انه يعزز من زيادة درجة شخصية الزبير بن العوام عند الرسول . . فهو هنا محشور وعلى لسانه الكريم ، ما بين الصديقين والشهداء ، وأياً كان منهم الزبير فهو حارزٌ وحاصل على منزلة رفيعة عالية عند الله ورسوله والمسلمين .

والإستشهادات المتواترة عن النبي ﷺ والمتأكدة . . . والواردة في صور

(١) موضح اوهام الجمع والتفريق جـ٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .
(٢) موضح اوهام الجمع والتفريق جـ٢ ص ٤٠٩ .
(٣) حياة الصحابة جـ٢ ص ٤٠٩ .
(٤) الخصائص ـ السيوطي جـ٢ ص ٤٤٧ .

شتى ومناسبات مختلفة ، ترشدنا إلى نتيجة يقينية ، بان الزبير بن العوام كان ذا شأن معزز ،، ومبلغ كبير من الاحترام والتبجيل عند الرسول ﷺ وصحبه وفي نظر بقية المسلمين الذين بدورهم يعرفون له محله ومكانته ومنزلته ودرجته ووزنه .

أجمع الثقات عن معاذ بن جبل ان النبي ﷺ لما أراد ان يسرح معاذاً الى اليمن استشار ناساً من أصحابه فيهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وأسعد بن حضير فتكلم القوم ، كل إنسان برأيه . . .(١)

وهكذا تتعدد شخصية الزبير بن العوام وتتنقل عبر صور ومواقف متباينة آنئذٍ . . . بين جندي للرسول ، إلى أحد قواد لوائه ، الى احد كتابه ، ومنفذ لأوامره في المهمات الخاصة ، الى كونه أحد مستشاريه ، والمتكلمين في مجلسه ، اذا شاركهم الرسول ﷺ في رأي أو مشورة ، فيها فائدة عامة للمجتمع .

وأخرج الطبراني عن سهل رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ من حجة الوداع ، صعد المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : ايها الناس ان أبا بكر لم يسؤني قط ، فأعرفوا له ذلك ، أيها الناس انيّ راضٍ عنه وعن عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين فأعرفوا لهم ذلك(٢) .

من كل هذه الروايات نستشف ان الزبير كان من أحد ركائز الإسلام القوية وعمود من أعمدته الراسخة ، وكوكب من كواكبه المضيئة ، وبطل من أبطاله المغاوير ، . . كان يتفجر بالطاقة والحيوية والشجاعة النابضة والمثل العليا .

(١) تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١ هـ ط ٢ ١٩٦٤ مطبعة المدني - القاهرة ص ٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٢ للسيوطي .

أحاديثه عن الرسول

ارّخ الزبير بن العوام لاحاديث الرسول ﷺ وذلك بما أطلقه من روايات متعددة عنه ، . . . وهذه الروايات قليلة سيما إذا قسناها بالفترة الزمنية الطويلة التي قضاها وعاشرها الزبير مع الرسول ﷺ في مكة والمدينة ، ولا ندري أكان الزبير زاهداً في الروايات لسببٍ ما ! ، أم الذين تحدث لهم الزبير غلبهم النسيان . . ومهما يكن الأمر فان البقية الباقية من رواياته تكفي ، وتوصل الى معرفة سلسلة زاهرة وعطرة من كلمات الرسول ﷺ .

(١) جاء « وذكر الزبير ان رسول الله ﷺ مر بماءٍ ، يقال بيسان ، في غزوة ذي مَرَد، فسأل عنه ، فقيل اسمه يا رسول الله ، بيسان وهو ملح ، فقال ، نعمان ، وهو طيب ، فغير رسول الله ﷺ ، اسمه ، وغير الله الماء ، فاشتراه طلحة بن عبيد الله ، ثم تصدق به ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : ما أنت يا طلحة إلا فياض ، فسمي ، الفياض »[١] .

(٢) جاء في نزهة المجالس ومنتخب العرائس : قال الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وعن امه صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها قال النبي ﷺ « ما من رجلٍ يدعو بهذا الدعاء في أول ليله أو نهاره إلا عصمه الله من ابليس وجنوده : بسم الله ، ذي الشأن ، عظيم البرهان ، شديد السلطان ، ما شاء الله كان ، أعوذ بالله من الشيطان »[٢] .

---

(١) معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ص ٢٩٢ الجزء الاول تاليف الوزير الفقيه أبي عبدالله بن عبد العزيز البكري الاندلسي المتوفى ٤٨٧ هـ . الجزء الأول والثاني - تحقيق مصطفى السقا - القاهرة ١٩٤٥ م .

(٢) نزهة المجالس ومنتخب العرائس ، عبد الرحمن الشافعي جـ١ ص ١٤١ .

(٣) وعن عامر بن عبدالله بن الزبير يحدث عن أبيـه : « قال : قلت للزبير : مالي لا أسمعك ، تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ، قال : أمـا اني لم أفارقه منذ أسلمت ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كـذّب عليّ فليتبوّأ مقعده من النار »[١] .

(٤) وقال وهب بن جرير في حديثه عن الزبير قائلاً : « والله ما قال متعمداً وانتم تقولون متعمداً »[٢] .

(٥) « وعن أبي عبدالله الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه »[٣] .

(٦) جاء تحت موضوع الرحمة على الأولاد والتسوية بينهم في كتاب حياة الصحابة : « وعند الطبراني عن الزبير رضي الله عنه ، قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ ، ساجداً حتى جاء الحسن بن علي ، رضي الله عنه ، فصعد على ظهره ، فما أنزله حتى كان هو الذي نزل وانه كان ليفرج له رجليه فيدخل من ذا الجانب ويخرج من ذا الجانب الآخر »[٤] .

(٧) وقال الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت فأقم » . رواه أحمد عن الزبير[٥] .

(٨) وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي ﷺ :

---

(١) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٧ .
(٢) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٧ .
(٣) رياض الصاحلين ص ١٢١ .
(٤) حياة الصحابة جـ٢ ص ٥٢٨ .
(٥) مختار الأحاديث والحكم النبوية ص ٨٥ - مطبعة الاستقامة - ط ١٢ الطبع - بدون تاريخ - في القاهرة .

« ما من صباحٍ يُصبح العباد فيه الا وصارخ يصرخ ايها الخلائق سبحوا الملك القدوس » رواه ابن السني عن الزبير[1] .

(٩) وقال الزبير بن العوام عن النبي ﷺ أيضاً : ـ « من أحب أن تُسرَّ صحيفته فليكثر من الاستغفار» رواه البيهقي »[2] .

(١٠) وعن الزبير بن العوام عن النبي ﷺ قال : « مثل حديث الأصم سواء »[3] .

(١١) وجاء في مكاشفة القلوب (المطبوع في مصر بلا تاريخ) انه لما نزل قوله تعالى ﴿ وإنك ميت وإنهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ ، قال الزبير يا رسول الله : أيكرر ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا الى كل ذي حق حقه .

فال الزبـــير : والله ان الأمر لشديد فأعظم بشدةٍ ، يوم لا يسامح فيه بخطوة ، ولا يُتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة ، حتى ينتقم للظالم من المظلوم »[4] .

(١٢) وأخرج أبو يعلى وابن عساكر عن الزبير قال : دعا لي رسول الله ﷺ ولوالدي وولد ولدي كذا [5] .

(١٣) « وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ ، اذا جلس في التشهد وضع يده اليمنىٰ على فخذه اليمنىٰ ويده اليسرى

---

(١) مختار الأحاديث والحكم النبوية ص ١٣٢ .

(٢) مختار الأحاديث والحكم النبوية ص ١٣٨ .

(٣) موضح اوهام الجمع والتفريق جـ٢ ص ١٦٩ .

(٤) مكاشفة القلوب . الإمام الغزالي : الطبع بلا تاريخ . القاهرة

(٥) حياة الصحابة ج ٣ ص ٣٧٧ في المنتخب (ج ٥ من ٧) .

على فخذه اليسرىٰ ، وأشار بالسبابة ولم يتجاوز بصره إشارته » رواه أحمد ومسلم والنسائي . . . يقول سيد سابق : ففي هذا الحديث ، الاكتفاء بوضع اليمنىٰ على الفخذ بدون قبض ، والإشارة بسبابة اليد اليمنىٰ ، وفيه أنه من السنة ، أن لا يجاوز بصر المصلي إشارته ، فهذه كيفيات ثلاث صحيحة والعمل بأي كيفية جائز »[1] .

(١٤) وجاء في كتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله :

حدثنا سعيد بن نصر قراءة في أن قاسم بن أصبغ قال : حدثنا ابن وضاح قال حدثنا موسى بن معاوية قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن حرب بن شداد عن يحيى بن أبي كثير قال حدثني يعيش بن الوليد ان مولى الزبير بن العوام حدثه عن الزبير بن العوام ان رسول الله ﷺ قال : « دب اليكم داء الامم قبلكم ، الحسد والبغضاء ، البغضاء هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفس محمد بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك ، أفشوا السلام بينكم »[2] .

(١٥) « وعن الزبير بن العوام أن النبي ﷺ لما خرج يريد الغار أتاه أبو بكر بناقة ، فقال اركبها يا رسول الله ، فلما ركبها التفت الى أبي بكر ، فقال : يا أبا بكر أعطاك الله الرضوان الاكبر ، قال يا رسول الله وما الرضوان الأكبر؟ قال : يتجلى الله عز وجل يوم القيامة لعبادهِ عامة ويتجلى لك خاصة »[3] .

---

(١) فقه السنة ـ تأليف السيد سابق ص ١٧٠ ، المجلد الأول ، مكتبة العربي ، بيروت ، لبنان ١٩٦٩ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ١٥٠ ج ٢ للإمام المحدث المجتهد حافظ المغرب أبي عمر يوسف ابن عبد البر النمري القرطبي الأندلسي المتوفى ٤٦٣ هـ ، دار الكتب العلمية . بيروت لبنان ـ تاريخ الطبع ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

(٣) الفضائل للطبري ج ١ ص ١٤٧ .

الزبير في الجنة

ومما يفرض نفسه علينا في سياق البحث، هو تخصيص حقل مستقل ، في التأكيد ، على دخول الزبير إلى الجنة ، بأسانيد صحيحة ونصوص لا شك فيها .

١ ـ قال النبي ﷺ : « لن يلج النار أحدٌ ، شهد بدراً والحديبية »(١) .

والمعروف عن الزبير كما مر ، انه شهد جميع المعارك والغزوات ، وشارك فيها ، وأبلى في كل منها بلاء حسناً ، لا يزال التأريخ يذكره له ، ولأجل المزيد من اليقين والمتابعة ، فليراجع القارىء اذا أراد ، المعارك والغزوات الاسلامية ويتعقب دور الزبير فيها .

٢ ـ قالت عائشة رضي الله عنها : قال النبي ﷺ .

أبوك في الجنة ورفيقه ابراهيم عليه السلام .
وعثمان في الجنة ، ورفيقه أنا .
وعلي في الجنة ، ورفيقه يحيى بن زكريا عليه السلام .
وطلحة في الجنة ، ورفيقه داود عليه السلام .
والزبير في الجنة ، ورفيقه اسماعيل عليه السلام .
وسعد بن أبي وقاص في الجنة ورفيقه سليمان عليه السلام .
وسعيد بن زيد في الجنة ورفيقه موسى عليه السلام .
وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ورفيقه عيسى عليه السلام .

---

(١) الإستيعاب في معرفة الصحاب ص ٥٦٢ ج ٢ .

وأبو عبيدة عامر بن الجراح في الجنة ورفيقه ادريس عليه السلام .
ثم قال : يا عائشة أنا سيد المرسلين وأبوك أفضل الصديقين[١] .

وفي رواية أخرىٰ « عشرة في الجنة . . . .
وذكر هؤلاء . . . »[٢] الذين ورد أسمائهم آنفاً .

٣ ـ وجاء في كتاب علوم الحديث ومصطلحاته ان : « العشرة المبشرون في الجنة هم الخلفاء الراشدون ثم سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح » .

٤ ـ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قـال : « سمعت أذني من في رسول الله ﷺ وهو يقول : الطلحة والزبير جاراي في الجنة »[٣] .

٥ ـ قال النبي ﷺ « لكل نبي حواري وحواري الزبير» ومعنى الحواري : الناصر : وقيل الخاصة[٤] والذي لا خلاف فيه ، ان الزبير بن العوام كان من حواري الرسول ﷺ من خاصته ـ أضف إلى ذلك صراحة رسول الله بانه من آهل آلجنة والتأكيد على دخوله فيها يوم القيامة . « وقد روى عن علي كرم الله وجهه ـ كما جاء في كتاب مرآة الجنان ـ انه قال : والله اني لأرجو أن اكون أنا وطلحة والزبير من أهل هذه الآية ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين ﴾ . ـ قلت ـ والكلام للمؤلف ـ . . . وما ينكر سعادة الجميع منهم وغفران الله لهم . .

---

(١) نزهة المجالس جـ ٢ ص ٤٦٥ كذلك .
(٢) علوم الحديث ومصطلحاته ـ الدكتور صبحي الصالح ص ١٤٩ .
(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول ، الشيخ علي منصور .
(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان جـ ١ ص ٩٨ .
تأليف الامام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليماني المكي المتوفي سنة ٧٦٨ هـ / منشورات ، بيروت . الطبعة الثالثة ١٩٧٠ .

ما جرىٰ بينهم ، الا باغض ذو ابتداع ، أو جاهل ليس لـه بفضائلهم سماع »(1)

---

(1) مرآة الجنان وعبرة اليقظان جـ١ ص ٩٨ - ٩٩ . تحت حوادث ٣٦ هـ .

الزبير في عهد أبي بكر

تعود علاقة الزبير بأبي بكر الصديق الى ما قبل دخولهما الإسلام ، ونشطت هذه العلاقة وتحولت الى مرحلة جديدة بعد ذلك ، قامت هذه العلاقة الجديدة منذ اللحظات المبكرة من إشراق شمس الإسلام وهبوط الوحي في تبشير محمد ﷺ بالنبوة . اذ تم إسلامه عن طريق أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

« جاءهُ يوماً صديقه أبو بكر ، رضي الله عنه ، فحدثه بأمر جلل أصغى اليه « الزبير » بكل وعي وانتباه ، واستشعر الزبير على اثر الحديث بأن شيئاً ما يسري في كيانه ، وبأن روحه ونفسه تضخُ في جسده ، وبأن دماءه تكاد تتفجر وتمزق عروقه لشدة غليانها وفورانها .

« ثم اتفق مع محدثه أبي بكر . ان يلتقيا في جوف الليل ليمضيا سوية الى (محمد بن عبدالله) ابن خاله ، وزوج عمته ليُسلم بين يديه .

« قضى الزبير سحابة نهاره يبيع ويشتري ، ولكنه كان يسبح سبحاتٍ بعيدة عن واقع الناس ، ويهيم في أجواء قصية عن دنياهم ، وما انقضىٰ النهار حتى شعر الزبير كأن كابوساً من الهم والغم قد انزاح عن عاتقه ، وأسرع الى الدار يغير هندامه ، ويتحلل من لباس العمل ، ولكن . . . ما بال ضربات قلبه تسرع ، ونبضاته تشتد ؟ انه يعرف محمداً أكثر مما يعرفه الناس ، إنه يمت اليه بصلة القرابة .

« وعلى الرغم من هذا فهو لا شك يتهيب الموقف العظيم . . .

« وكان الزبير في ذلك الحين لا يعدو السادسة عشرة من عمره ، معتدل القامة ، أسمر اللون تبدو على محياه سيماء الشجاعة والمهابة .

« خرج من الدار دون أن ينبىء أحداً بمقصده وغايته ومر على أبي بكر ، ثم مضيا سوية الى « محمد » ﷺ ، حيث لقيهما هاشاً ، باشاً ، مُرَّحباً . « واسلم الزبير وشهد لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، ولم يكن الزبير ممن يكتمون ايمانهم ، فهو لا يرهب ولا يخشىٰ »(١) . وقد اثبتت الوقائع والمواقف هذه الخصلة عنه فيما بعد .

ثم توثقت علاقتهما (يعني أبا بكر والزبير) بالمصاهرة وذلك بزواجه من ابنته الكريمة السيدة اسماء أخت السيدة عائشة أم المؤمنين ، زوجة الرسول ﷺ ، ويظهر انه تزوج باسماء بمكة ، بعد الرجوع من الحبشة وقبل الهجرة الى المدينة ، وللعلم ان أسماء ولدت بابنها عبدالله بن الزبير في السنة الأولىٰ من الهجرة في المدينة ، وكانت حاملة بعبدالله هذا عندما هاجرت من مكة المكرمة .

أخرج ابن سعد عن أسماء أبي بكر رضي الله عنهما « قالت: تزوجني الزبير بن العوام (رض) وما له في الأرض ولا مملوك شيء غير فرسه ، قالت : فكنت أعلف فرسه ، واكفيه مؤونته ، وأسوسه، وأدق النوىٰ الناضحة ، وأعلفه وأسقيه الماء وأحرز غربه ، وأعجن ، ولم اكن أحسن أخبز ، فكانت تخبز جارات لي من الأنصار وكن نسوة صدق ،

● قالــت : وكنت أنقل النوىٰ من أرض الزبير التي أقطعه ، النبي ﷺ ، على رأسي علىٰ ثلثي فرسخ .

● قالت : فجئت يوماً والنوىٰ على رأسي ، فلقيت رسول الله ﷺ ، ومعه نفر من أصحابه فدعا لي ، ثم قال : أخ أخ ليحملني خلفه ، فآستحييت

---

(١) سلسلة الأبطال ـ الزبير بن العوام ـ ص ٥ ـ ٦ .

أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته .

● قالت : وكان من أغير الناس .

● قالت : فعرف رسول الله ﷺ ، أني قد استحييت ، فمضى ، فجئت الزبير ، فقلـت : لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب معه ، فاستحييت وعرفت غيرتك ، فقـال : والله لحملكِ النوى كان أشد عليّ من ركوبك خلفه .

● قالت : حتى ارسل لي أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفاني سياسة الفرس فكأنما أعتقني »[1] .

وجاء في حياة الصحابة عن عكرمة : « أن أسماء بنت أبي بكر ، كانت تحت الزبير بن العوام ، وكان شديداً عليها ، فأتت أباها ، فشكت ذلك إليه ، فقال يا بنية : اصبـري فان المرأة اذا كان لها زوج صالح ثم مات عنها فلم تتزوج بعده ، جمع الله بينهما في الجنة»[2] .

وهذه التفاتة شريفة من ابي بكر الصديق ، إذ يحث ابنته في تحمل الحياة الزوجية والصبر عليها ، ولم يقل شيئاً يَمُسُّ الزبير بن العوام .

بايع الزبير لأبي بكر بالخلافة في البيعة العامة ، وقد « أقطعه الجرف »[3] .

ومن أخباره في عهد أبي بكر الصديق انه أشترك مع علي والصحابة الكرام ، بالوقوف خلف الخليفة أبو بكر في أداء صلاة الميت على الجنازة الطاهرة لفاطمة الزهراء رضي الله عنها .

---

(١) الطبقات لأبن سعد ج ٨ ص ٢٥٠ ؛ وكذلك حياة الصحابة ج ٢ ص ٧٧٧ .
(٢) حياة الصحابة ص ٧٧٨ .
(٣) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٤ .

فقد جاء في كتاب الفضائل للطبري[1] : ماتت فاطمة رضي الله عنها بين المغرب والعشاء ، فحضرها أبو بكر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأشار عليّ ، علىٰ أبي بكر بالصلاة عليها .

ويروى للزبير بن العوام صورة خبرية ، عن حدث جليل يتعلق بتأريخ الوقفات المشرفة لأبي بكر الصديق مع الرسول ﷺ ، نذكرها بمناسبة موضوع الزبير وأبي بكر ضمن هذا البحث . . . « وعن الزبير بن العوام ان النبي ﷺ لما خرج يريد الغار أتاه أبو بكر بناقة ، فقال اركبها يا رسول الله ، فلما ركبها ، التفت إلى أبي بكر ، فقال : يا أبا بكر أعطاك الله الرضوان الأكبر ، قال يا رسول الله وما الرضوان الأكبر ؟ ، قال : يتجلىٰ الله عز وجل يوم القيامة لعباده عامة ويتجلّىٰ لك خاصة »[2] .

وورد في كتاب الفضائل للطبري أيضاً : « عن أبي سعيد الخدري ، قال « قال ابو بكر لعلي بن أبي طالب : قد علمت أني كنت في هذا الأمر قبلك . قال : صدقت يا خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ فمد يده فبايعه ، فلما جاء الزبير ، قال : أما علمت أني كنت في هذا الأمر قبلك ؟ قال : فمد يده فبايعه »[3] .

وأخرج ابن سعد والحاكم عن أبي سعيد الخدري قال : قبض رسول الله ﷺ ؛ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة وفيهم ابو بكر وعمر ، فقام خطباء الأنصار فجعل الرجل منهم يقول : يا معشر المهاجرين ان رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا ، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان منا ومنكم ، فتتابعت خطباء الأنصار على ذلك ، فقام زيد بن ثابت فقال : اتعلمون ان رسول الله ـ ﷺ ـ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين ، ونحن كنا أنصار رسول الله ـ ﷺ ـ فنحن أنصار خليفته كما كنا

---

(١) الفضائل للطبري ج ١ ص ١٥٦ .
(٢) الفضائل للطبري ج ١ ص ١٤٧ .
(٣) الفضائل للطبري ج ١ ص ٢٢٩ .

أنصاره ، ثم أخذ بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم ، فبايعه عمر ثم بايعه المهاجرون ، والأنصار ، وصعد ابو بكر المنبر ، فنظر في وجوه القوم ، فلم ير الزبير، فدعا بالزبير فجاء فقال : قلت ابن عمة رسول الله - ﷺ - وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين ! ، فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله - ﷺ - فقام فبايعه ، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً ، فدعا بعلي فجاء ، فقال : قلت ابن عم الرسول - ﷺ - وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين ، فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله - ﷺ - فبايعه »(١) .

وبعد ذلك خطب فيهم ابو بكر موضحاً لهم منهاجه الذي يسير عليه ومن جملة ما قال « والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ، ولا سألت الله في سرٍّ ولا علانية ، ولكني اشفقت من الفتنة ، وما لي في الإمارة من راحة ، لقد قلدت أمراً عظيماً ، ما لي به من طاقة ولا يد ، إلا بتقوية الله ، فقال : علي والزبير : ما غضبنا إلا لأنا أخبرنا عن المشورة ، وإنا نرىٰ أبا بكر أحق الناس بها ، أنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره ولقد امره رسول الله - عليه الصلاة والسلام ، الصلاة بالناس وهو حي »(٢) .

ومما يتعلق بأخبار الزبير بن العوام في عهد أبي بكر الصديق كذلك ، وحسب ما جاء في كتاب حياة الصحابة(٣) ما يلي ملخصه :

كان أبو بكر مهتماً بإرسال الجيوش إلى الروم ، وقد استشار الصحابة في ذلك وبعـد مناقشات وآراء حول الأمر بين الخليفة أبي بكر والصحابة ، قال ابو بكر : ماذا ترون ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء ، السيوطي ص ٦٨ - ٦٩ .
(٢) تاريخ الخلفاء - السيوطي ص ٧٠ - ٧١ .
(٣) حياة الصحابة جـ١ ص ٤٩ .

فقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ : أني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين شفيق عليهم ، فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم صلاحاً ، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين .

فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم : صدق عثمان ، ما رأيت من رأي فامضه ، فإنّا لا نخالفك ولا نتهمك، وذكروا هذا واشباهه . . . الخ .

ومما يفيدنا ذكره ونقله في هذا الصدد من كتاب الزبير بن العوام ، ما جاء في الصفحتين ١٥ و١٦ . . . «ولحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلىٰ ، فكان الزبير من ضمن العشرة الذين توفي النبي ـ ﷺ ـ وهو راضٍ عنهم .

واستمر الزبير على ولائه لكلمة الله ، وأضحىٰ من الذين يشكلون هيئة الشورىٰ على الصعيدين السياسي والعسكري لخليفة رسول الله ـ ﷺ ـ أبي بكر الصديق ، وأبلىٰ أحسن البلاء في حروب الردة ، حتى قضى على الفتنة وعادت قبائل العرب ، تتفيأ ظل الإسلام »(١) .

وقد تحمل الزبير مسؤولية حماية الدولة العربية الإسلامية من أهل الردة ، بكل أمانة وإخلاص ، إلى أن عاد الصفاء الى الجزيرة ، وتحققت الوحدة على أحسن ما يرام ، وسدت الثغرات أمام المتسللين المغرضين والمخربين .

الزبير في اليرموك

كما شارك الزبير في عهد أبي بكر في فتوحات الشام فينقل لنا التاريخ قائلاً « . . . وعندما سير الخليفة الصديق الجيش لفتح الشام ، كان الزبير أحد القادة الذين أسهموا في إحراز يوم اليرموك ، تولىٰ إمارة أحد

---

(١) الزبير بن العوام ـ سلسلة الأبطال ـ ص ١٥ ـ ١٦ .

الكراديس(*) في جيش المسلمين ، وروى بدمائه أرض المعركة ، إذ شق صفوف الأعداء ، حتى بلغ آخرها ، ولكنه أصيب بجرحٍ غائر . . . .

«وعاد الزبير مع عمر بن الخطاب الى المدينة بعد أن قدم الى القدس وتم فتحها صلحاً »[1] .

وتشهد كل كتب التأريخ ان الزبير بن العوام ، لعب الدور الحاسم بكردوسه في انهيار معنوية الروم ونقل النصر النهائي الى جانب المسلمين .

عن عروة بن الزبير ، أن أصحاب النبي ﷺ ، قالوا للزبير يوم اليرموك : ألا تشد علىٰ الكفار فنشد معك ؟ ، . . فحمل عليهم وضربوه ضربتين على عاتقه منهما ضربة، ضربوها ، يوم بدر قال ، عروة : فكنت أدخل أصابعي في تلك وهي تشبه العيون [2] .

وقد مر علينا قبل قليل ، ان الزبير شق صفوف الأعداء ، وخلخل صفوفهم ، وأصيب بجرح غائر ، وسالت منه دماء غزيرة ، ولعل هذا الجرح هو من اثر هذه الضربة التي كان عروة بن الزبير يذكر عنها في الرواية السابقة وفي الرواية التالية التي لا تختلف عن الأولىٰ : « وعن عروة : كان في الزبير ثلاث ضربات كنت أدخل أصابعي فيها ، اثنتان يوم بدر ، وواحدة يوم اليرموك »[3] ، ووردت الرواية ـ بشيء من التوسع ـ كذلك في حياة الصحابة . . . وأخرج البخاري عن عروة رضي الله عنه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للزبير رضي الله عنه ، يوم اليرموك ، ألا تشد ، فنشد معك ؟ فقال : اني ان شددت كذبتم .

فقالوا : لا نفعل .

(*) مفردها كردوس ، وعدد جنوده الف (١٠٠٠) مقاتل .

(١) الزبير بن العوام ـ سلسلة الابطال ص ١٦ .

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول للشيخ علي منصور .

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٢٧ .

فحمل عليهم حتى شق صفوفهم وجاورهم ، وما معه أحد ثم رجع مقبلاً ، فأخذوا بلجامه ، فضربوه ، ضربتين على عاتقه ، بينهما ضربة ، ضُربها يوم بدر .

قال عروة : كنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ، ألعب وأنا صغير .

وقال عروة : وكــان معه عبدالله بن الزبير يومئذٍ وهو ابن عشر سنين فحمله على فرس ، وركل به رجلاً ، ثم جاءوا اليه ثانية ، ففعل كما فعل في المرة الأولىٰ .

ونستنتج من كل ما سبق من النصوص التاريخية الشاهدة ، ان الزبير بن العوام ، كان في جبهة الشام ، حين وفاة أبي بكر الصديق ، وأنه سار إليها بأمرٍ منه ، وكان أميراً على أحد الكراديس ، يساهم مع المسلمين في تطهير الأرض العربية من فلول الروم ، وتحريرها نهائياً من سيطرتهم وإرجاع المنطقة الى النفوذ العربي الإسلامي السياسي والديني ، ولقد كان لصولاته وجولاته في ساحة المعركة الفضل الرئيس في النصر النهائي واندحار الروم أمام جحافل العرب ، وتحرير بلاد الشام من نفوذهم الإستعماري البغيض .

الزبير في عهد عمر

كان الزبير بن العوام من أهل الشورىٰ في حكومة عمر بن الخطاب « وإن عمر ـ بدوره ـ أقطع الزبير العقيق أجمع »[1] .

ومما أعتقده أن تنقلات الزبير خارج الحجاز في عهد عمر كانت قليلة ، إلا اشتهاره في فتح مصر ، وإرسال الخليفة عمر له مدداً لعمرو بن العاص ، الذي سيأتي الكلام عنه في حينه . وكان الخليفة عمر يمنع الصحابة من الخروج خارج الحجاز لأسباب يراها من صالح المسلمين . وقد تطرق الأستاذ الدكتور عبدالله خورشيد البري الى هذا الموضوع في كتابه القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة فيقول :

« كان عمر بن الخطاب قد حجر على إعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بأذن وأجل ، وقال في تعليل ذلك : ألا وأن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حي فلا . إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار »[2] .

ولكننا نستطيع من جانبنا أن نجتهد في استخراج معرفة الإطار العام للأسباب المحتملة التي دفعت عمر في اتخاذ مثل هذا الإجراء الخطير . . .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد م ٣ ص ١٠٤ .

(٢) القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولىٰ للهجرة الدكتور عبدالله خورشيد البري ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (ص ٧٠) ١٩٦٧ ـ مكان الطبع غير مذكور . نقلاً عن تأريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك (ط . الاستقامة ، القاهرة ١٩٣٩) ج ٣ ص ٤٢٧ .

وذلك أن عمر كان يسعى الى جمع الكلمة عن طريق الصحابة ، في حالة اجتماعهم وعدم تفرقهم في الأوطان البعيدة ، وأنه لا يستطيع أن يستغني عنهم ، لأنهم النواة الأساسية لتقوية هيبة الحكم المركزي انطلاقاً من الفكرة الصائبة أو المبدأ المأثور : ـ لا حكم إلا برجال ـ وكأنه كان شعار عمر : لا هيبة لحكمه إلا بوجود الصحابة حوله ، وبقوتهم ونفوذهم ومكانتهم يستطيع أن يمضي في الحكم وينصرف الى نشر الإسلام .

ويجدر بنا أن نستفيد في هذا المقام من رأي الأستاذ محمد عمارة في كتابه « مسلمون ثوار » إذ يقول في هذا الصدد : وفي عهد عمر حيث كثرة الفتوحات ووفرة الغنائم والتحف والعملات الذهبية التي ذهل لمرآها كثير من الصحابة بل ، وبكىٰ خشية من آثارها عمر بن الخطاب .[1] ، وفي سبيل تلافي المخاطر التي يحتمل توقعها من جراء هذه التطورات ، اتخذ عمر العديد من الإجراءات ، ومن ضمنها انه . . « منع كبار الصحابة من التفرق في الامصار المفتوحة والإستقرار بها ، حتىٰ يمنع اشتغالهم بجمع المال ، وتكوين العصبيات ، واستغلال النفوذ ، . . وكلما كان قدر الصحابي عالياً ، ومركزه في الإسلام سامياً ، كان حذر عمر بن الخطاب ـ في موضوعنا هذا ـ أشد . . . »[2] .

كان اسم الزبير بن العوام موجوداً في الديوان الذي أوجده عمر ، طيلة خلافته ، وقد محا الزبير اسمه من هذا الديوان بعد مقتل عمر ، وذلك استناداً إلى رواية عروة من « أن الزبير بن العوام لما قتل عمر محا نفسه من الديوان »[3] .

وكانت نظرة عمر الى الزبير ، مليئة بالإحترام والاعتبار فكان يعتبره أحد

---

(١) مسلمون ثوار للاستاذ محمد عمارة ص ٢٨ .
(٢) مسلمون ثوار للأستاذ محمد عمارة ص ٢٩ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد م ٣ ص ١٠٧ .

المشاهير من الصحابة الذي فارقهم الرسول ﷺ وهو عنهم راض . فقد جاء في الطبقات الكبرىٰ لابن سعد أنــه : « كان عمر بن الخطاب ، وهو صحيح يُسأل : أن يستخلف فأبىٰ ، فصعد يوماً المنبر ، فتكلم بكلماتٍ وقــال : ان مُت فأمركم إلى هؤلاء الستة الذين فارقوا الرسول ﷺ وهو راضٍ عنهــم :

علي بن أبي طالب ونظيره الزبير بن العوام .

وعبد الرحمن بن عوف ونظيره عثمان بن عفان .

وطلحة بن عبيد الله ونظيره سعد بن مالك »(١) كما جاء في الطبقات الكبرىٰ أيضاً ، أن عمراً أقطع الزبير العقيق أجمع .(٢) وقد سبق أن مرت بنا هذه الرواية في المقدمة .

وأبرز ما قام به الزبير من دور في عهد عمر بن الخطاب هو توليه قيادة جيش المدد ، وذهابه الى مصر لفتحها على رأس ١٠ آلاف جندي لمساعدة عمرو بن العاص وإكمال مسيرة الفتح العربي هناك وإنقاذ مصر من السيطرة الإستعمارية ، فجاء عن هشام بن عروة قال : « ان الزبير بُعث الى مصر ، فقيل له أن بها الطاعون ، فقال : إنما جئنا للطعن والطاعون ، فوضعوا له السلاليم فصعدوا عليها »(٣) . لاقتحام السور الذي كان يتحصن به جيش العدو ، وسنتوسع في موضوع الزبير والفتح العربي في مصر ان شاء الله .

لقد سجل لنا قلم التأريخ عدة أخبار للزبير في عهد عمر ، منها . . .
« وعن زيد ابن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للزبير بن العوام : هل لك في أن تعود الحسن بن علي (رضي الله عنهما) فأنه مريض ؟ فكان الزبير تلكأ عليه ، فقال له عمر : أما علمت أن عيادة بني

---

(١) الطبقات الكبرى لأبن سعد جـ٣ ص ١٠٧ .
(٢) الطبقات الكبرىٰ لأبن سعد جـ١ ص ١٠٤ .
(٣) الطبقات الكبرىٰ لأبن سعد جـ٣ ص ١٠٧ .

هاشم فريضة وزيارتهم نافلة ، وفي رواية : ان عيادة بني هاشم سنة وزيارتهم نافلة »[1] .

« وأخرج المحاملي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن عمر سابق الزبير رضي الله عنهما ، فسبقه الزبير ، فقال : سبقتك ورب الكعبة ! ثم أن عمر سابقه مرة أخرىٰ فسبقه عمر ، فقال عمر : سبقتك ورب الكعبة »[2] والخبران السابقان : عرض عمر على الزبير بن العوام في زيارة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وكذلك تسابقهما هو والزبير ، ان يدلا علىٰ شيء ، فإنما يدلان على عمق العلاقة ورسوخها بينهما ، سواء أكان الخبران المذكوران قد حدثا ما قبل أو ما بعد خلافة عمر رضي الله عنه ، والأحرى أنهما ـ أي الخبران ـ يتحدد حدوثهما في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والله أعلم .

ومن أخباره في عهد عمر أيضاً : « عن رجل من بني أسد أنه شهد عمر ابن الخطاب (رض) سأل أصحابه وفيهم طلحة وسلمان والزبير وكعب رضي الله عنهم ، فقال : أني سائلكم عن شيء فإياكم أن تكذبوني وتهلكوا انفسكم ، أنشدكم بالله : أخليفة أنا أم ملك ! ، فقال طلحة والزبير انك لتسألنا عن أمر ما نعرفه ، ما ندري ما الخليفة من الملك . . . فينبري سلمان من وسط الملأ ليجيب عن سؤال عمر ويقول له بأنه خليفة وليس بملك ما دام يسير على سنة الله ورسوله ﷺ[3] .

ومما ورد في كتاب حياة الصحابة أيضاً : « وأخرج ابن سعد (ج ٣ ص ٢٠٦) ، وابن عساكر عن محمد بن يزيد رضي الله عنه قال : اجتمع علي وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد ، وكان أجرأهم على

---

(١) ذخائر العقبى ، الطبري جـ٢ ص ١٥ .
(٢) حياة الصحابة جـ٢ ص ٧٨٣ .
(٣) حياة الصحابة جـ٢ ص ٣٧ .

عمر ، عبد الرحمن بن عوف ، . قالـوا : يا عبد الرحمن ! لو كلمت أمير المؤمنين للناس ، فإنه يأتي الرجل طالب الحاجة ، فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته ، حتى يرجع ولم تقض حاجته ، فدخل عليه فكلمه فقـال : يا أمير المؤمنين لِنْ للناس فإنه يقدم عليك القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك .

قـال : يا عبد الرحمن أنشدك بالله أعلي وعثمان وطلحة والزبير أمروك بهذا ؟ قال : اللهم نعم ! قال : يا عبد الرحمن لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين ، ثم اشتددتُ عليهم حتىٰ خشيت الله في الشدة ، فأين المخرج ؟ فقام عبد الرحمن يبكي ، يجري رداءه ، ويقول : أفٍ لهم بعدك »[1] .

ومن أخبار الزبير في عهد عمر أيضاً ، ما جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف الانصاري :

وكان الزبير بن العوام من أشد الناس على عمر في تقسيم الشام ، فقد ورد عن أحد الرواة انه : « قال : وحدثني الليث بن سعيد عن حبيب بن أبي ثابت قال : ان أصحاب رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين ، أرادوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقسم الشام كما قسم رسول الله ﷺ ، خيبر . وأنه كان أشد الناس عليه في ذلك ، الزبير بن العوام ، وبلال بن رباح . فقال عمر رضي الله عنه : اذن أترك بعدكم من المسلمين لا شيء لهم ، ثم قال : اللهم اكفني بلالاً وأصحابه . قـال : فرأىٰ المسلمون ان الطاعون الذي أصابهم بعمواس كان من دعوة عمر . قال : وتركهم عمر رضي الله عنه يؤدون الخراج للمسلمين »[2] .

وقد سجل لنا المفسر الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي صورة خبرية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

---

(١) حياة الصحابة جـ٢ ص ٣٩ـ ٤٠ .
(٢) الخراج لأبي يوسف الانصاري ، ص ٢٨ ، القاهرة ١٣٩٢ هـ ط ٤ .

جاء في القسم الثاني فيما يروىٰ عن الصحابة : « عن زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : وفدت على عمر بن الخطاب حلل من اليمن فقسمها على الناس . فرأىٰ فيها حلة رديئة ، فقال : كيف أصنع بها ، إن أعطيتها أحداً لم يقبلها ، إذا رأىٰ هذا العيب فيها ، فأخذها فطواها ، فجعلها تحت مجلسه . فأخرج طرفها ووضع الحلل بين يديه ، فجعل يقسم بين الناس، فدخل الزبير بن العوام وهو على تلك الحال قال :

فجعل ينظر الى تلك الحلة . .
فقال : ما هذه الحلة ؟

قال عمر : دع هذه عنك ، قال ماهيهْ ماهيهْ ما شأنها؟ قال عمر : دع هذه عنك ، قال : فأعطنيها ، قال : انك لا ترضاها ، قال : بلىٰ قد رضيتها ، فلما توثق منه واشترط عليه أن يقبلها ولا يردها رمىٰ بها اليه . فلما أخذها الزبير ونظر إليها ، إذا هي رديئة . . فقال لا أريدها ، فقال : عمر : ايهات قد فرغت منها ، فأجازه عليها وأبىٰ أن يقبلها منه »[1] .

---

(١) اخبار الظراف والمتماجنين ص ١٧ ـ ١٨ ،للمفسر الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي ، راجعه وقدم له ، طه عبد الرؤوف سعد ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ ـ القاهرة . الناشر مكتبة الكليات الأزهرية .

إستعداد الزبير للإنضمام الى فرسان القادسية
- في جبهة العراق -

وفي سنة ١٥ هجرية كانت وقعة القادسية ، « قال الحجاج : فحدثني عبدالله أنه كان معهم - يعني الفرس - سبعون فيلاً ، وعن بكر عن ابن اسحق قـال : كان رستم في ستين ألفاً من أحصى ديوانه والمسلمون ستة آلاف أو سبعة »(١) . وكان الزبير آنئذٍ في المدينة قافلاً من الشام بعد مشاركته الفعالة في معركة اليرموك وتأدية دوره العسكري البارز فيها ، في إسقاط الروم وانتصار المسلمين . ولما عزم الخليفة عمر بن الخطاب المسير بنفسه في قيادة جبهة القادسية ، كان الزبير من أسرع الصحابة استعداداً للإنضواء تحت لواء جيش الخلافة ، للإلتحاق بفرسان القادسية في جبهة العراق وقد قلّده عمر مركزاً عسكرياً هاماً في هذه المسيرة المباركة ، وتحرك الجيش ، ثم توقف الخليفة موضعاً من المدينة ، واجتمع بقادة الجيش وكذلك الصحابة للتشاور بينهم ، ووصل الأمر ببقاء عمر في المدينة وإرسال سعد بن أبي وقاص محله ، وقد بقي الزبير فيما بعد مع الخليفة في المدينة ، للتعاون معه في إدارة شؤون الحكم . وهذا الخبر تؤكده كل كتب التاريخ ولا داعي للإستشهاد بها جميعاً ، واختصر الإستشهاد فقط بما سجله المؤرخ عز الدين علي بن محمد ابن الأثير . المتوفى ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م في كتابه الكامل في التاريخ ، قائلاً : في موضوع « ثم دخلت سنة أربع عشرة، ذكر ابتداء أمر القادسية) :

« لما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة ، حتىٰ نزل على ماء يدعىٰ

(١) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ١١٩ .

صراراً ، فعسكر به ، ولا يدري الناس ما يريد ، أيسير أم يقيم ، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف ، فإذا لم يقدر هذان على علم شيء ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب ، فسأله عثمان عن سبب حركته ، فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشار المسير الى العراق ، فقال العامـــة : سِر وسِر بنا معك . فدخل معهم في رأيهم وقال : اغدوا واستعدوا فأني سائر الا ان يجيء رأي هو من أمثل هذا . ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وأرسل الى عليّ ، وكان استخلفه على المدينة فأتاه ، والى طلحة ، وكان على المقدمة فرجع اليه ، وإلى الزبير وعبد الرحمن ، وكانا على المجنبتين ، فحضرا ، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ويرميه بالجنود ، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح وإلا أعاد رجلاً وبعث آخر ففي ذلك غيظ العدو . فجمع عمر الناس وقال لهم : إني كنت عزمت على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً فأشيروا عليّ برجل .

وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن ، فكتب اليه عمر بانتخاب ذوي الرأي والنجدة والسلاح فجاءه كتاب سعد ، وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه ، يقول : قد انتخبت لك الف فارس كلهم له نجدة ورأي وصاحب وحيطة يحوط حريم قومه ، اليهم انتهت أحسابهم ورأيهم ، فلما وصل كتابه ، قالوا لعمـــر : قد وجدته . قال : من هو؟ قال : الأسد عادياً سعد بن مالك فانتهى الى قولهم وأحضره وأمره على حرب العراق ووصاه . . . الخ » والرواية طويلة وسردها الى النهاية يخرجنا عن متابعة موضوعنا المطلوب .

وكل ما كان يهمنا من تسجيلها ، هو ان القدر كاد ان يرشح الزبير بن

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٤٥٠ ـ ٤٥١ ، تاليف عز الدين علي بن محمد بن الاثير المتوفى ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٣ م . دار صادر بيروت ١٩٦٥ .

وكذلك حياة الصحابة ج ١ ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥ وتقول الرواية ان الزبير كان على ميسرة جيش الخليفة عمر ، والرواية عن الطبراني عن عمر بن عبد العزيز . . . الخ .

العوام في فتوحات القادسية وان يكون أحد قوادها البارزين في جيش الخليفة عمر بن الخطاب وتحت قيادته العليا لولا تشاور الصحابة فيما بينهم ، ببقاء الخليفة عمر ، وانتخاب القائد سعد بن أبي وقاص . وهكذا بقي عمر ومعه الصحابة ومنهم الزبير بن العوام ، لإدارة شؤون الدولة وكذلك الإشراف العسكري على التطورات التي تكللت بالإنتصارات المجيدة في جبهة القادسية وما تلتها من فتوحات أخرىٰ في تلك النواحي .

الزبير واشتراكه في فتح مصر

إن فتح مصر وتحريرها من الإستعمار الأجنبي ، من أكبر الأحداث في تاريخ الأمة العربية ، وقد ارتبط هذا الفتح الخالد بالجيش العربي المجاهد وباثنين من كبار القادة ومشاهير قريش وهما عمرو بن العاص والزبير بن العوام وما أروع ما جاء في كتاب الزبير بن العوام[1] من وصف لهذا الفتح المبين مع بيان فضل الزبير بن العوام . . . فقد جاء أنه « بعد أن توجه عمرو بن العاص الى مصر لفتحها ، ووطأ كثيراً من بلدانها ودساكرها وقراها ، رأى أن عدد جنوده ـ ٣٥٠٠ ـ جندي ـ غير كاف لمتابعة مسيرة الفتح ، إذ عليه أن يترك في كل مكان يفتحه حامية ، فاستنجد بالخليفة عمر بن الخطاب في المدينة ، فأرسل له الزبير بن العوام في اثني عشر ألفاً من الجنود مدداً ، فيهم أجلاَّء الصحابة وفرسان المسلمين أمثال (المقداد بن الأسود) و (عبادة بن الصامت) و (مسلمة بن مخلد) ، و (خارجة بن حذافة) .

سار الزبير الى مصر حثيثاً حتى لقي جيش المسلمين يحاصر حصن « بابليون » وهو الحصن القوي الذي كانت تحتمي به قوات الروم ،لسعته وعلو أبراجه ، والذي استعصىٰ على كثير من الفاتحين والغازين .

واستشعر جند عمرو بالحماس يدبُّ في أوصالهم وبالأمل ، يحدوهم إلى النصر ، بعد أن لبثوا شهوراً يحاصرون الحصن دون طائل .

ثم طال الحصار حتى بلغ سبعة أشهر ، ففكر الزبير وقدر ، وأدرك ان

---

(١) الزبير بن العوام ـ سلسلة الابطال الصفحة ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ .

الملل سيوهن نفسية الجنود وإن الأمر يحتاج إلى مغامرة .

وفي اجتماع ضمه مع قادة جيش المسلمين قال الـزبـير : « أني أهب نفسي لله ، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » ، ثم عرض خطته على الجميع فكان منهم الموافق ومنهم المعارض ، إلا أن الزبير أصر وخرج من الإجتماع .

ثم نادى في جنده ، وطلب اليهم أن يتأهبوا . . . وبعد أن أغطش الليل بسواده أديم الأرض ، احتمل هو وبعض الجند سلّماً أسنده الى سوار الحصن ، من ناحية تعرف بسوق الحمام ، ثم صعد بتؤدة وعلى تمهل . . ، وكانت كلمة السر بينه وبين جنده ، تكبيرة يرتفع بها صوته ، وما إن سمع الجند كلمة : الله أكبر ، حتىٰ تدافعوا نحو السلم وتزاحموا كل يريد أن يسبق أخاه الى المعركة وسؤدد النضال ،

وفوجىء الروم بجنود المسلمين على مشارف الحصن يملأونها، فأسقط في أيديهم ، ولم يجدوا للقتال أية جدوىٰ فانسحبوا ، وتم فتح الحصن الذي استعصىٰ على المسلمين بفضل الله سبحانه ، وبفضل رجل من المؤمنين اسمه « الزبير بن العوام » ، وكان فتح حصن بابليون بمستوىٰ معركة « اليرموك » ومعركة « القادسية » إذ انهارت مقاومة الروم في مصر وتلاشت بل وانتهت » .

لقد آثرنا تسجيل هذه العبارات الرائعة من كتاب الزبير بن العوام عن دور الزبير في فتح مصر ، وهي تصور لنا خلاصة إقدامه وشجاعته وفضله في الإنتصار على الروم ، الذي يعتبر تحولاً تاريخياً جديداً ، ونقطة مضيئة من نقاط المجد العربي الإسلامي ، وقد جاء السرد بأسلوب علمي بسيط ، يغلب عليه طابع الأدب التاريخي المتسلل ، مع المحافظة على قيمة الناحية التاريخية المبنية على التتابع وانتظام حلقات الموضوع .

والآن جاء الدور لذكر النصوص التاريخية التي اقتبسناها من المصادر القديمة

لكي تنقل لنا بدورها من الموضوع بما يفيدنا في سياق البحث من جهة ، وزيادة الإطلاع والعلم عن فضائل الزبير ومآثره العظيمة واللمسات الخالدة التي تركها وطبعها على جبين التاريخ وألواحه الناصعة .

والمصادر التي يمكن أن نعتمد عليها في سرد أخبار فتح مصر ودور الزبير فيها كثيرة ، ولكننا نختصر في اقتصار تسجيلها على خمسة من المصادر التاريخية القيمة وهي :

١ ـ تاريخ خليفة بن خياط رواية بقي بن مخلد .
٢ ـ كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر .
٣ ـ فتح الشام للامام الواقدي .
٤ ـ فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم .
٥ ـ تاريخ الملوك للطبري .

جاء في موضوع حوادث « سنة ٢٠ » والذي « فيها أمر مصر » من كتاب تاريخ خليفة بن خياط ـ القسم الأول ـ « حدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جده وعبدالله بن مغيرة عن أبيه وغيرهم أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص أن سر إلىٰ مصر ، فسار وبعث عمر الزبير بن العوام مدداً لهُ ، ومعه عمير بن وهب الجمحي ، وبُسر بن أرطأة العامري ، وخارجة بن حذافة ، حتى أتىٰ باب أليون(*) ، فامتنعوا فافتتحها عنوة وصالحه أهل الحصن ، . وكان الزبير أول من ارتقىٰ سور المدينة ثم أتبعه الناس ، بعد . وكلم الزبير بن العوام عمراً/ أن يقسمها بين من افتتحها ، فكتب عمرو الى عمر ، فكتب عمر : أكلة وأكلات خير من إفرازها »(١) .

وتحت موضوع ـ فتوح مصر والمغرب ـ تناول الكاتب قدامة بن جعفر في

(*) حصن في قرب موضع الفسطاط ما زالت آثاره قائمة حتى اليوم ـ شرح المحقق ـ يراجع ص ٩٢ ص ١٣٦ من حاشية كتاب تاريخ خليفة بن خياط ـ القسم الأول .
(١) تاريخ خليفة بن خياط ـ القسم الأول ص ١٣٦ .

كتابه الخراج وصناعة الكتابة . مسألة أخبار فتوحات مصر فقال :

« كان عمرو بن العاص ، حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك ، ثم استخلف عليها ابنه حين ولي يزيد بن أبي سفيان ومضىٰ الى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فغضب عمر لذلك ، وكتب اليه يوبخه ويعنفه على افتئاته عليه برأيه وأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر . فورد عليه الكتاب وهو بالعريش وقيل أيضاً : ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية وكان أتاه شريك بن عبدة فأعطاه الف دينار ، فأبىٰ شريك ، قبولها ، فسأله أن يستر ذلك ، ولا يخبر به عمر .

● قالوا : وكان مسير عمرو الى مصر في سنة تسع عشرة فنزل العريش ثم أتىٰ الفرماء ، وبها قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوىٰ عسكرهم ، ومضىٰ قدماً الى الفسطاط فنزل جنان الريحان ، وقد خندق أهل الفسطاط عليهم ، وكان اسم مدينة الفسطاط (اليونة) ، فسماها المسلمون الفسطاط لأنهم قالوا هذا فسطاط القوم ومجمعهم ، وقيل : ان عمرو بن العاص ضرب بها فسطاطاً فسميت بذلك ، وكان عمرو بن العاص قد دخل الى مصر في ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فلم يلبث أن ورد عليه الزبير بن العوام في عشرة آلاف ، ويقال اثنا عشر ألفاً ، متطوعاً محتسباً ، قالوا : فكان عمرو يقاتل من وجه والزبير في آخر ، ثم ان الزبير أتىٰ بسلم فصعد عليه ، حتىٰ صار في أعلى الحصن وهو مجرد سيفه فكبر وكبر المسلمون معه ، واتبعوه ففتح الحصن عنوة ، واستباح المسلمون ما فيه وأقر عمرو أهله علىٰ أنهم ذمة ، ووضع عليهم الجزية في رقابهم ، والخراج في أرضهم ، وكتب بذلك الى عمر فأجازه ، واختطّ الزبير بمصر وابتنىٰ داراً معروفة به ، والناس يختلفون في فتح مصر انها صلح أو عنوة ، وإنما السبب في اختلافهم ان الزبير لما علا الحصن ، واتبعه المسلمون فدخلوا ، . . »[1] .

---

(١) الخراج وصناعة الكتابة لقدامه بن جعفر ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

وها الآن نقوم بتسجيل مقتطفات تاريخية من مصدرٍ تاريخي هام ، وهو كتاب (فتوح مصر وأخبارها) تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم القريشي المصري - طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٣٠

فقد جاء في الكتاب المذكور : ان عمرو بن العاص ، حاصر الروم « بالقصر الذي يقال له بابليون حيناً ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، يصبحهم ويمسيهم ، فلما أبطأ الفتح عليه ، كتب الى عمر بن الخطاب يستمده» وبعث عمر بن الخطاب ، الزبير بن العوام في ١٢ اثني عشر ألفاً[١] .

فلما وصل الزبير بن العوام والتقىٰ بعمرو الذي كان ينتظر قدومه بفارغ الصبر « أقبلا يسيران، ثم لم يلبث ان ركب الزبير ثم طاف بالخندق[*] ثم فرق الرجال حول الخندق »[٢] .

ويستمر المؤلف قائلاً : فلما أبطأ الفتح على عمرو بن العاص قال الزبير بن العوام : أني كتبت نفسي لله ، أرجو أن يفتح الله بذلك ، على المسلمين ، فوضع سلماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره لن يجيبوا جميعاً . . . . فما شعروا إلا والزبير علىٰ رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الجند على السلم ، حتى نهاهم عمر خوفاً من أن ينكسر ، فلما اقتحم الزبير والذين اتبعوه وكبروا معه ، أجابهم المسلمون من خارج الحصن ، واندفعوا لاقتحام الحصن على أثرهم ، حينئذٍ خاف المقوقس على نفسه ومن معه ، فسأل عمرو بن العاص الصلح ودعا اليه ، على أن يُفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجاب عمرو الى ذلك[٣] .

---

(١) فتوح مصر واخبارها ص ٦١ .

(*) ونستطيع ان نقول انه في هذه العملية قام بما يسمىٰ بالاصطلاح الحاضر بتفقد المواضع العسكرية .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٦٢ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ٦٣ .

ويتضح هنا ان تسور الزبير بن العوام حصن بابليون وصعوده السلم، هو السبب الرئيسي في خوف المقوقس ورجاله، وهو الذي دعاه أن يعزم على التقدم بطلب الصلح . . . وقد قرر الاستاذ الدكتور عبدالله خورشيد البري في كتابه القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة وهو بدوره يتفق مع مؤرخي تاريخ الفتح العربي لمصر : في التأكيد على الزبير بن العوام قائد المدد في معارك الفتح والذي اليه يرجع الفضل في الإستيلاء على حصن بابليون(١)، ومما يفيدنا تثبيته ما كتبه الأستاذ عبدالله خورشيد تحت موضوع العصبية الجماعية قائلاً :

« هناك ما يدل على أن العرب الذين عاشوا في مصر كانوا يعون وبالتالي يعترفون ويتأثرون بالتقسيمات الجنسية العامة كعدنان وقحطان ويعرب ومضر وما تستتبعه هذه التقسيمات من تقارب أو تنافر أو تعاون أو تشاحن »(٢) وفيما يلي نموذج لذلك :

يقول الاستاذ عبدالله خورشيد « في أثناء الهجوم على حصن بابليون حدث سوء تفاهم، نتيجة للتنافس فيما يبدو. بين الزبير بن العوام القرشي وشراحيل بن حجية المرادي، فعرض عمرو على الزبير ان يستفيد من شراحيل الذي أهانه، ولكن الزبير استكبر قائلاً : أمن نغفة من نغف اليمن استفيد يا ابن النابغة »(٣).

وبعد انتهاء الفتح أخذ الفاتحون يخططون لأنفسهم الدور وقيل أن الزبير

---

(١) فتوح مصر واخبارها ص ٩٦ و١١٤ وكذلك القبائل العربية في مصر، الدكتور عبدالله خورشيد البري ص ٨٤ .

(٢) القبائل العربية في مصر ص ٢٦٣ .

(٣) القبائل العربية في مصر ص ٢٣٦، وفتوح مصر ص ٦٤ جاء في تفسير النغفة كما نقل المؤلف من القاموس في مادة النغف : (النغف : درد في انوف الإبل والغنم أو في النوىٰ او من الخنافس ومنه قالوا : للمستحقر يا نغفة » يراجع ص ٢٣٦ كذلك من كتاب القبائل العربية في مصر .

بن العوام اختط داراً بالفسطاط وأن أبا ذر الغفاري هو الذي أختطه له .[1] وقيل كذلك ان الزبير اختط في الاسكندرية[2] .

وعن رواية تنتهي الى سفين بن وهب الخولاني يقول : « لما افتتحنا مصر بغير عهد ، قام الزبير ، فقال : أقسمها يا عمرو ، فقال عمرو : لا أقسمها حتىٰ أوامر أمير المؤمنين ، فقال الزبير : والله لتقسمنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر ، فقال عمرو :

والله لا أقسمها حتى أوامر أمير المؤمنين ، فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر أقرها حتى يغزو منها حَبَلُ الحَبَلَة »[4] .

إنتهينا من سرد أخبار الزبير بن العوام في فتح مصر من كتاب ابن عبد الحكم ، والآن سنعرج على المعتمد الآخر لبحثنا والذي نأخذ منه رواية واحدة مكملة لما سبقها ، وتؤكد هذه الرواية بدورها ـ [والتي وردت في كتاب تاريخ الملوك ج ٣] على ان نهاية فتح مصر وصلت بالتالي إلى اتفاق الطرفين على الصلح بعد أن رأىٰ المصريون أن لا مقاومة لهم بدفع العرب والمكنة على مقاومتهم . . . وذلك عن شعيب عن سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا :

« لما نزل عمرو على القوم بعين شمس ، وكان الملك بين القبط والنوب ، ونزل معه الزبير عليها ، فقال أهل مصر لملكهم :

ما تريد الى قومٍ فلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم ؟ . . صالح القوم ، واعتقد منهم ، ولا تعرض لهم ، وذلك في اليوم الرابع ، فأبىٰ ، وناهدوهم ، واعتلى بعد ذلك الزبير سورها ـ يعني سور الحصن الذي كان به المصريون وملكهم ـ فلما أحسوه ، فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين ،

(١) فتوح مصر واخبارها ص ١١٤ .
(٢) فتوح مصر واخبارها ص ١٣٠ .
(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٣ .

فقبل منهم ، ونزل الزبير عليهم عنوة ، حتى خرج على عمرو من الباب معهم ، فاعتقدوا بعدما أشرفوا على الهلكة فأجروا ما أخذوه عنوة مجرىٰ ما صالح عليه ، فصاروا ذمة »[1] .

وخالص ما نحلله هو أن الروم لم يحسوا بالتخاذل والجبن إلا بعدما مُلئـوا رعباً من ارتقاء الزبير السور بشجاعة وهمة ، . . . والحقيقة ان الزبير لم يكتفِ بالوقوف على السور فقط وإنما لما رأىٰ انخذال القوم واضطرارهم الى التصالح مع عمرو وفتحهم الباب له ، نزل عنوة لتقوية جانب عمرو ، تحفظاً من مكائدهم وحماية لقائد الجيش عمرو ، وترهيباً للعدو ، وإدخال الخوف في قلوبهم ، والتأكد من نياتهم .

وأعتقد ان هذه العزمات الزبيرية المتواثبة لا تحتاج الى تعليق أكثر من إشادتنا ببطولته وإكبارنا الجسيم لفضله في فتح مصر العربية .

بعد كل ما أورده المؤرخون عنه حتى الآن سواء في عهد الرسول ﷺ ، ومواقفه في المعارك الحاسمة آنئـذٍ ثم سيرته في عهد أبي بكر ، ثم ثناء التاريخ عليه في دوره الناصع الذي لعبه في فتح مصر أقول :

بعد كل هذا !!

ألا يستحق الزبير أن يذكر بالتمجيد والإعزاز ويحتل اسمه مكاناً مهماً في تاريخنا العربي والإسلامي ، ويجد له تفاعلاً وتأثيراً في الفكر والعقيدة والإقتداء ، ويجري في العروق ، ويسري في أعماق العاطفة ، ويجد له تأثيراً حيوياً في المشاعر المنطلقة والسائرة في دروب الخير والحرية من أجل تحقيق كرامة الإنسان ، وإنقاذه من الجور والإلحاد والجمود والجوع والتحجر والإستغلال .

ولا نكتفي في معرفة دور الزبير بن العوام في فتح مصر بالإقتصار على

(١) تاريخ الملوك ، الطبري ج ٣ ص ١٩٩ مع مراجعة ص ١٩٥، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

المصادر السالفة ، وإنما نكملها ونختمها بلقطات مجيدة وعزيزة ، تصور لنا مدى بطولته وإقدامه وجرأته وتفانيه في سبيل تمهيد الفتح العربي في مصر ورسوخه هناك الى الأبد ، نقتبسها من كتاب فتّوح الشام للإمام الواقدي أبو عبدالله محمد بن عمر ج ٢ ، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت ، ط ١ ١٩٦٢ ، حيث يشير إلى ان عمر بن الخطاب لما وصل اليه كتاب عمرو بن العاص بعد فراغه من فتح الاسكندرية والوجه البحري ودمياط ، وكان طالباً فيه الأذن بالتوجه إلى الصعيد والغرب بعد ذلك ، مع إمداده ، فما كان من عمر بن الخطاب ، بعد استيفاء المعلومات من كتاب عمرو بن العاص اليه ، حتى أخذ بعرض الكتاب على الصحابة وفيهم عثمان وعلي رضي الله عنهما ، لاستشارتهم ، فانتدب اليه بعشرة آلاف من أصحاب الرسول ﷺ ، وأرسل عليهم الزبير بن العوام[١] .

وأستأنف الواقدي قائلاً :

ولما وصل الجيش الى مصر ، أخذ عمرو بن العاص يستدعي الرايات فتقدم الزبير بن العوام « وهو راكب على جواده الأغر شاك سلاحه » فاستلم الراية من يد عمرو بن العاص ، وأمره - يعني عمرو - بعد ذلك على خمسمائة ، فخرج بعسكره ثم هز الراية وأنشد[٢] يقول :

أنـا الـزبـير ولـد العـوام ... ليث شجاع فارس الإسـلام
قـرم همـام فـارس هـجـام ... أقتـل كـل فـارس ضرغـام
وأنـي يـوم الـوغىٰ صـدام ... ونـاصـر في حـانها الإسـلام

ثم استدعى عمرو الآخرين وهم الفضل بن العباس وزياد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبدالله بن عمر ، وجعفر بن عقيل ، وكل

(١) فتوح الشام - الواقدي ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٢) فتوح الشام - الواقدي ج ٢ ص ٢٢٤ .

منهم على خمسمائة ، ثم آخرون يطول ذكرهم ، فحمل كل منهم على البطريق وجيشه ما حمل إلى أن انتصروا . . (١)

وليس غرضنا عرض تفاصيل المعركة بأكملها بقدر ما يهمنا أدوار الزبير بن العوام ، الناجزة بالهمة والافتداء والهجوم الهادف ، وكذلك الوقوف على أشعاره ، باعتبارها وثائق تاريخية ، الى جانب كونها من الناحية الأدبية تعتبر من شعر الفتوح والحرب ، وهي لون من الوان الشعر العربي يختلف كل الإختلاف عن شعر الغزو القبلي للعرب قبل الإسلام ، بل ولا صلة له به بتاتاً ، وذلك لاختلافهما في الأغراض والأهداف . ولندع هذا الجانب الفكري والأدبي المتولد وفقاً لتطورات الأمور وتغير الحالات ، لأهل الإختصاص والتتبع .

وفي موقف آخر استدعي الزبير بن العوام وكان معه أبو ذر الغفاري لشن حملة هجومية على الأعداء لكن الزبير « حلف لا يسير إلا هو » ، وانتخب معه فرساً ، فساروا حتىٰ قربوا من القوم الذين كانوا قد التفوا بالمسلمين ، فجمعوا عزائمهم ، وتحمسوا وهجموا على الروم حتى كسروهم « ثم جمع المسلمون الاسلاب والسلاح والخيل ورجعوا إلى أصحابهم وهم فرحون بالنصر على أعدائهم » ومعهم ستمائة أسير من العدو(٢) .

رأينا الزبير بن العوام في الرواية السابقة أول من يُستقدم ، فيقدم وينتصر ، وفي الرواية الثانية نجده يصر على الهجوم بنفسه ، ويرفض معاونة أبي ذر له ، وفي ذلك دلالة حيَّة على حب الجهاد ونصر الإسلام ، واترك للقارىء ان يستعين بتصوره السليم من خلال هذه الروايات في التقدير والاستنتاج للروح المثالية الفائقة التي كانت متواجدة في تمكن الزبير العسكري

---

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ج ٢ يراجع تفاصيل الفتح من الصفحة ٢٢٥ الى الصفحة ٢٧٢/ حيث الخاتمة .

(٢) فتوح الشام ج ٢ ص ٢٣٤ .

والحربي وتأثيره على دفع حركة الجيش العربي الى طريق النصر المحقق ، وأرجو القارىء أيضاً ان يتأمل ويفحص ويقف ليتروىٰ كل خبر وحدث وكلام ، له صلة بموضوع الزبير بن العوام ثم يبني احكامه على ذلك .

نعود مرة أخرىٰ ، ونستمر في سرد الوقائع : فبينما الزبير بن العوام والصحابة وأولاد الصحابة تحت قيادة عمرو بن العاص مشغولون بالفتوحات تلو الفتوحات ، والنصر تلو النصر في مصر وسقوط مدنها بأيديهم . . . كان الخليفة عمر بن الخطاب والصحابة في المدينة يترقبون بتلهفٍ هذه الأخبار المفرحة . . وتأتيهم الغنائم فيتسلمها الخليفة العادل ، ويوزعها على أهل المدينة ويأخذ هو نصيباً منها كأحدهم ، وهو بعد ما تأتيه نتائج الوقائع من هناك أي الجبهة المصرية ، يقوم هو بدوره في مباركة خطواتها وتحريضهم وتشجيعهم على الإقدام والإستبسال والإستمرار في الفتح ، وهذا موقف من المواقف الفريدة والرائعة ينقله لنا قلم الواقدي ؛ فيقول ما نصه : . . « قال : ـ ويقصد الراوي ـ حدثنا عدن بن سعيد قال حدثنا هاشم بن نافع عن رافع بن مالك العلوي ، قال : كنت في خيل الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، لما توسطنا البلاد ، . . . وتعرضنا لأهلها . . ، وشننا الغارة على السواد ، فوجدنا قطيعاً من الغنم ومعها رعاة ، فلما أحسوا بنا تركوها ومضوا فسقناها ، ثم سرنا قليلاً وإذا بنساء وصبيان مشرفة ونصارىٰ من القبط وغيرهم ، فلما رأونا فروا وكان معهم عشرون فارساً من العرب المتنصرة من جذام(*) ومعهم بطريق من البطارقة ، عليه الزينة الفاخرة ، فلما عاينونا فروا من بين ايدينا ، فأطلقنا الغارة عليهم ، فما كان غير بعيد ، أن أدركناهم ، وقبضنا عليهم ،

(*) يعود استقرار العرب القدماء أو سكان الجزيرة العربية في مصر قبل الفتح العربي الإسلامي بقرون قديمة وسحيقة ، ولأجل معرفة المزيد عن قدم عروبة مصر تاريخياً يتفضل القارىء بدراسة كتاب تاريخ القبائل العربية في مصر للاستاذ عبدالله خورشيد البري وكذلك دراسة تاريخ العروبة في وادي النيل للدكتور عبد المجيد عابدين المطبوع مع تحقيقاته لكتاب البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب للمقريزي .

وسألناهم ، فأجابوا بانهم ، من قرىٰ شتىٰ ، وانهم يريدون اهناس ، فعرضنا عليهم الإسلام فامتنعوا فاردنا قتلهم فمنعنا الزبير » (وهذه تدل على اخلاقية الزبير الحربية السامية التي تأبىٰ التنكيل والفتك بالضعفاء) ، قال : وسرنا حتى قربنا من أهناس ورأينا المضارب والخيام والسرادقات ، فأعلن الزبير بالتهليل والتكبير ، وكبر المسلمون ، حتى ارتجت الأرض لتكبيرهم ، وخرجت الروم الى ظاهر خيامهم ينظرون الينا ، وعدو الله مارنوس بن ميخائيل ينظر الينا والحجاب والنواب وأرباب الدولة من البطارقة حوله ، وعليهم أقبية الديباج وعلى رؤوسهم التيجان المكللة وبأيديهم العمد الذهبية والسيوف ، وهم محدقون به عن يمينه وشماله ، فلما أقبلنا عليهم تصايحوا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم ، واستقلونا في أعينهم »[١] .

ولما قرب الزبير بن العوام رضي الله عنه ، من القوم هز الراية وأنشد يقول :

أيا أهل أهناس الطغاة الكوافر ويا عصبة الشيطان من كل غادر
اتتكم ليوث الحرب سادات قومها على كل مشكول من الخيل ضامر
فان لم تُجيبوا سوف تلقون ذلة ونقتل منكم كل كلب فاجر

ثم تقدمت الرايات بعد أن ألهب فيهم الزبير الحماس والغيرة الحربية حتى انتصروا[٢] .

كما شارك الزبير بن العوام في فتح فيوم ، هو وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبدالله بن عمر ، وعقبة بن نافع الفهري بألف فارس وفتحوها[٣] .

وفي فتح البهنسا[٤] يقول الواقدي :

---

(١) فتوح الشام ج ٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
(٢) فتوح الشام ج ٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢ وما بعدها .
(٣) فتوح الشام ج ٢ ص ٢٦ .
(٤) للمزيد من المعلومات حول فتح البهنسا ونزول الصحابة وقتل البطريق راجع من الصفحة ٢٧٢ الى ٣١٠ من كتاب فتوح الشام .

« قال الراوي ، وسار الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، بمن معه ، حتى أشرف على البهنسا ، فكبر وكبر معه المسلمون وأنشد[1] يقول :

أتيناكم على خيل عناق   شبيه الريح يوم الإستباق
عليها كل صنديد همام   شديد البأس والحرب راقي
نذلّ حماتكم بالسمر لما   نجول بها مع البيض الرقاق
ونقتل كل ملعونٍ وباغ   على الإسلام من أهل النفاق
ونحن حماة دين الله حقاً   نقر بأنَّ رب العرش باقي
وإن محمداً خير البرايا   رسول الله للعلياء راقي

وفي اليوم المقرر لهجوم المسلمين ، حيث كان الروم معتصمين ، في سور عظيم ، وعليها أبواب وأبراج ضرب المسلمون الأبواب والسور بالمنجنيق ، وقتلوا الحراس ، وتسلقوا بعد ذلك السور ودخلوا الأبواب[2] .

وكان الزبير بن العوام في طليعة من تسلق السور باندفاع بالغ ، وتحمس منقطع النظير ، والمتفق في جميع المصادر التاريخية ان فكرة تسلق السور في بداية المرحلة الأولى من فتح مصر وخاصة عند حصار بابليون ، كانت من وحي أفكاره ، وكان آخر ما لجأ إليه من التخطيط والتدبير العسكري في سبيل تدعيم تحرك الجيش العربي لدحر العدو وإجباره واضطراره للإستسلام .

ولتوضيح ذلك كله نتابع معاً الواقدي[3]

قال الزبير بن العوام ، في أثناء تسلق المسلمين الأسوار منشداً :

أيا بطليموس يا كلباً لعيناً   ويا نسل الطغاة الأرذلينا
أتتك حماة دين الله حقاً   وأولاد الجياد الخيرينا

(١) فتوح الشام ج ٢ ص ٢٩١ .
(٢) فتوح الشام ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١١ .
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠٣ .

خيار الناس نسل بني نزار كراماً في الأعادي قاطعينا
اذا احتبك العجاج بهم تراهم بحولك كالسباع الضاربينا
ولا منهم جبان قطُ يهزم ولا نذل فتلقاه حزينا
وليس ترىٰ سوىٰ مقدام قومٍ أثار الحرب صنديداً أمينا

قال الواقدي :

ثم خرجت الروم وقاتلت قتالاً شديداً وتواثبت جماعة من الأمراء مثل الزبير بن العوام وابنه عبدالله وعبد الرحمن بن أبي بكر الى باب البحر ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وتقدم الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر إلى الباب والروم على أعلىٰ السور ، ونزل الزبير عن جواده وصلىٰ ركعتين والحجارة تتساقط عليه ، وهو لا ينزعج لذلك ، وتقدم ـ الزبير ـ هو والفضل وعبد الرحمن بن ابي بكر إلى الباب وجعلوا السلاسل من فوق ، وصعدوا إلى أعلى البرج وهدموا الشرافات ووضعوا السيف في الحراس وفتحوا الباب[1] (والمقصود هنا باب البرج) . . إلىٰ أن وضعت الحرب أوزارها وحقق الله النصر للمسلمين .

ومن خلال هذه الروايات التي تكمل بعضها البعض الآخر يبدو لنا الأدوار الصعبة للزبير بن العوام في فتح مصر ، وفي أماكن مختلفة من البلاد عند الاصطدام مع العدو ، والحق يقال انه لولا إرسال الخليفة عمر بن الخطاب ، الزبير على رأس قيادة جيش المدد ، ولولا وصوله ، لما تم فتح مصر اللهم إلا بمشقات بالغة وتضحيات هائلة .

ومما ينبغي ذكره أيضاً من مفاخر الزبير في تاريخ مصر هو ما أشار اليه صاحب كتاب آثار البلاد حينما كان يكتب عن الفسطاط فيقول :

« الفسطاط هي المدينة المشهورة بمصر ، بناها عمرو بن العاص ، وبنى عمرو بن العاص الجامع المسجد سنة احدى وعشرين للهجرة ، يقال : قام

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٤ .

على إقامة قبلته ثمانون صحابياً منهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن أسود الكندي ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري »(١) .

ويتردد اسم الزبير أيضاً ، في كتب التاريخ ، في عدة مواقف في عهد عمر منها حضوره قصة الهرمزان أمام عمر وكذلك خبره في سنة احدى وعشرين فيما يتعلق بوقعة نهاوند ، ففيما يتعلق بقضية الهرمزان نقل لنا ابن خياط في تاريخه قال :

« عن أنس قال : حاصرنا تستر ، فنزل الهرمزان على حكم عمر ، فلما انتهينا اليه ، قال عمر : تكلم . قال : كلام حي أو ميت ؟ قال : تكلم لا بأس . قال : إنا وإياكم معشر العرب ما خلا الله بيننا وبينكم كنا نقصيكم ونقتلكم ، فلما كان الله معكم لم تك لنا بكم يدان . قال عمر : يا أنس ما تقول ؟ . قلت يا أمير المؤمنين تركت بعدي عدداً كثيراً وشوكة شديدة فإن نقتله يأيس القوم من الحياة أو يكون أشد لشوكتهم . قال عمر : أستحيي قاتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور ؟ فلما خفت أن يقتله قلت : ليس الى قتله سبيل قد قلت له تكلم فلا بأس ، فقال لتأتيني بمن يشهد به غيرك ، فلقيت الزبير فشهد معي فأمسك عنه عمر وأسلم وفرض له »(٢) .

وأما فيما يتعلق بوقعة نهاوند والتي حدثت سنة احدى وعشرين للهجرة قال ابن خياط :

« حدثنا الانصاري ، قال : حدثنا النهاس بن فهم عن القاسم بن عوف عن أبيه عن رجل ، عن السائب بن الأقرع قال : زحف للمسلمين زحف لم يزحف لهم بمثله قط ، زحف لهم أهل ماه وأهل اصفهان وأهل همدان وأهل الري وأهل قومس وأهل أذربيجان وأهل نهاوند ، فبلغ عمر الخبر

---

(١) اثار البلاد واخبار العباد للقزويني ص ٢٣٦ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط/ القسم الأول ص ١٤٢ .

فشاور المسلمين فاختلفوا ثم قال علي : يا أمير المؤمنين ابعث الى أهل الكوفه فليسر ثلثاهم وتدع ثلثهم في حفظ ذراريهم ، وتبعث الى أهل البصرة . فقال : أشيروا عليّ من أستعمل عليهم ؟ فقالو : يا أمير المؤمنين أنت أفضلنا رأياً وأعلمنا بأهلك . فقال : لاستعملن عليهم رجلاً يكون لأول أسنة يلقاها يا سائب اذهب بكتابي هذا الى النعمان بن مقرن فليسر بثلثي أهل الكوفة وليبعث الى أهل البصرة . وأنت على ما أصابوا من غنيمة ولا ترفع الي باطلاً ولا تحبس عن أحد حظاً هو له ، فان قتل النعمان فحذيفة ، فان قتل حذيفة فجرير . فان قتل ذلك الجيش فلا أرك .

فحدثنا موسى بن اسماعيل قال : أنا حماد ابن سلمه قال : أنا أبو عمران الجوني عن علقمة بن عبدالله المزني :

عن معقل بن يسار أن عمر شاور الهرمزان في أصبهان وفارس وأذربيجان بأيتهن يبدأ فقال الهرمزان : اصبهان الرأس ، وفارس وأذربيجان الجناحان ، فان قطعت أحد الجناحين مال الرأس بالجناح الآخر . وان قطعت الرأس وقع الجناحان .

فدخل عمر المسجد فإذا هو بالنعمان بن مقرن يصلي ، فسرحه ، وبعث الى أهل الكوفة أن يمدوه . فذهبوا ومعه حذيفة بن اليمان ، والزبير بن العوام ، والمغيرة بن شعبة ، والأشعث بن قيس . وعمرو بن معدي كرب ، ابن عمر حتى أتوا نهاوند »[1] .

كما شارك الزبير الحياة العامة للناس في عهد عمر ، وكان على رأس المتعاونين في إدارة حكومة عمر بن الخطاب فيما يتعلق بتقديم الخدمات وإجراء تنفيذ القيام بالمصالح العامة للمسلمين . فقد جاء في كتاب حياة الصحابة ما يلي :

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط . القسم الاول ص ١٤٤ .

« وأخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة الرمادة ، فكتب الى عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهو بمصر :

« من عبدالله امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي ، سلام ، أما بعد ، فلعمري يا عمرو ، ما تبالي اذا شبعت أنت ومن معك وأهلك ومن معي ، فياغوثاه ، ثم غوثاه ! » ويردد قوله ، فكتب اليه عمرو بن العاص :

« عبدالله أمير المؤمنين . . من عمرو بن العاص ، أما بعد ، فيا لبيك ، ثم يا لبيك ، وقد بعثت اليك بِعِير أولها عندك ، وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وبعث عمرو بعير عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر ، يتبع بعضها بعضاً ، فلما قدمت علىٰ عمر وسمع بها كل الناس ، ودفع إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيراً بما عليه من الطعام ، وبعث عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم يقسمونها على الناس ، فدفعوا الى أهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام أن يأكلوا الطعام ، وينحروا البعير فيأكلوا لحمه ويأتدموا شحمه ويحتذوا جلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام لما أرادوا من لحاف أو غيره ، فوسع الله بذلك على الناس »[1] .

وأخر ما نختتم به قولنا عن الزبير بن العوام في عهد عمر هو ذكرنا شدة ثقة عمر به ، والإعتماد عليه ، واحترامه البالغ له ، استناداً الى الرواية التالية :

« وروىٰ يعقوب بن سفيان عن مطيع بن الأسود أنه أوصىٰ الى الزبير فأبىٰ ، فقال : أسألك بالله والرحم إلا ما قبلت فاني سمعت عمر بن الخطاب

(١) حياة الصحابة . ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

يقــول : ان الزبير ركن من اركان الدين »[1] .

أجل كان الزبير بن العوام ، ركناً قوياً من اركان الدين الصلبة بقلبه وفكره ، وإيمانه وشجاعته وهمته وعزيمته الجبارة وقوته الخارقة وإرادته الثابتة . . . والتاريخ يعزز في صفحاته الخالدة تلك الصفات العظيمة ويهديه كلمات فخرية ويكلله بأجمل أوشاح التقدير والنصر ، ويصوره للأجيال اللاحقة ، بالرجل الصحيح ، واللائق بنقش وحفر اسمه في لوحات الخلود الوجداني ، واختزان امجاده ومواقفه الجليلة في دفقات المشاعر ومجاري الدم ومصباتها ، وبالتالي كتابة مآثره بأحرف من الأنوار الجلية البهية ممزوجة وموشاة بخطوط ذهبية خالصة ونقية ، محلاة بأنواع جميلة وبديعة من الأوراد والأزهار الزاهية ، ومحاطة بأسمىٰ وأرقىٰ عبارات الاعجاب ، وأشجىٰ الأناشيد البليغة الصارخة التي يستحقها رجل عظيم مخلص لأمته وعقيدته وربه كالزبير بن العوام .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٥٢٧ .

الزبير وعهد عثمان

كان الزبير أحد المقربين الى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وقد لمسنا ذلك من خلال الروايات التاريخية التي وردت في كتب متعددة ، وقبل ذكر أخباره في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، لا بد لنا من إعطاء موجز يسير لعلاقة الرجلين أعني علاقة الخليفة عثمان بالزبير بن العوام .

بدأت هذه العلاقة قبل الاسلام وتوطدت بعد الإسلام فظهرت بشكل أقوىٰ من حين إسلامهما معاً على يد أبي بكر الصديق هو والجماعة المبشرة ، ثم توطدت العلاقة بشكل أوسع وأوثق على يد الرسول في أيام المحن في مكة ثم في الهجرة الى الحبشة ثم في المدينة ، ثم بقيت العلاقة بينهما على أشد ما تكون في عهد خلافة أبي بكر الصديق ، ثم أصبح هو وعثمان وعلي وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف أعضاء في حكومة عمر الشورية ، (مجلس الشورىٰ) ، ومناصبهم هذه تقابلها اليوم الوزارة ، ثم كان من جملة المرشحين للخلافة بعد عمر هو مع باقي أعضاء المجلس المذكورين .

وبعد فوز عثمان بالخلافة بايعه الزبير ولم يخالفه ، ولم تصدر منه السلبيات المعرقلة في وجه الخلافة الجديدة ، على الرغم من ان ميوله كانت نحو علي بن أبي طالب ، وبقي مركز الزبير بين المسلمين وفي نظر الخليفة عثمان لم يتغير ، « لكنه كان يرىٰ في بعض تصرفات عثمان بعد ذلك ما يدعوه الى نصيحته »[1] .

---

(١) الزبير بن العوام ـ سلسلة الابطال ص ٢٠ .

ويبدو من تتبع الأوضاع والمتغيرات في عهد عثمان ـ من جملة ما يبدو ـ ان عثمان بن عفان لم يسر على منهاج سلفه عمر بن الخطاب في منع تنقل الصحابة خارج الحجاز إذ قد سمح لهم ، ولم يعارضهم بالسفر ، أو مزاولة التجارة ، كما نلاحظ ذلك في نشاطات الزبير بن العوام التجارية في عهده .

ومن جملة التغيرات التي ظهرت في اواخر حكم عثمان ان زمام الأمور لم يبق في اليد القوية كما كان ذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد رأى الامويون في تولي عثمان فرصة سانحة لاستعادة مراكز نفوذهم والسيطرة على الدولة وتحقيق آمالهم[1] .

فقد جاء في كتاب تاريخ الإسلام السياسي[2] للدكتور ابراهيم حسن ابراهيم ما يؤكد ذلك بما يلي :

لقد سمح عثمان بن عفان في أواخر خلافته للصحابة بـ « أن يستبدلوا املاكهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار التي هاجروا إليها » وقد تصدىٰ المسعودي ـ والكلام للاستاذ ابراهيم حسن ابراهيم ـ لذكر نفر من هؤلاء الصحابة الذين رحلوا الى الولايات واستقروا بها فقال : « وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة) ، تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وابتنىٰ دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية وما ذكرت دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول الى هذه الغاية ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار » .

وورد في كتاب الأموال لابن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ قال :

(١) مسلمون ثوار ص ٣٠ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ـ ابراهيم حسن ابراهيم . ط ١ القاهرة مطبعة حجازي ١٩٣٥ ـ ص ٣٤٤ .

« قال : وحدثني عن سفيان عن ابراهيم بن مهاجر عن موسى بن طلحة ، ان عثمان بن عفان ، أقطع خمسة من أصحاب النبي ﷺ : الـزبير وسعداً وابن مسعود وأسامة بن زيد ، وخباب بن الأرث ، قال : فكان جاريّ منهم ابن مسعود وخباب »[1] .

وروي باسناد الى ابن أبي جعة بإسناد الى عبدالله بن أحمد قـال : « أصاب عثمان الرعاف ـ سنة الرعاف ـ حتىٰ تخلف عن الحج ، وأوصىٰ ، فدخل عليه رجل من قريش ، فقال : استخلف ، قال : وقالوه ، قال عثمان : نعم . قال : من هو؟ قال : فسكت ، ثم دخل عليه رجل آخر ، فقال مثلما قال الأول ، ورد عليه نحو ذلك ، قال : فقال عثمان : الزبير بن العوام . قال : نعم قال عثمان : أما والذي نفسي بيده انه كان لأخيرهم ما علمت وأحبهم الى رسول الله ﷺ »[2] .

وهذا خبر آخر للزبير بن العوام في عهد عثمان بن عفان « قال عبد الرحمن بن عوف : أشهد أن رسول الله ﷺ أقطعني وعمر بن الخطاب أرض كذا وكذا ، فذهب الزبير إلى آل عمر فاشترىٰ منهم نصيبهم ، وقال الزبير : ان ابن عوف قال كذا وكذا ، فقال عثمان : هو جائز الشهادة له وعليه »[3] .

وورد كذلك ما نصـه : « أجاز عثمان الزبير بن العوام ، بستمائة الف ، فنزل أخواله بني كاهل ، فقال : أي المال أجود ؟ قالوا : مال اصبهان . قال : اعطوني من مال اصبهان »[4] .

وجاء في كتاب كشف الغمة عن جميع الأمة ـ الجزء الأول ـ للشعراني ، في فصل لمس المرأة والفرج : . . .

---

(١) الأموال ، الإمام الحافظ أبي عبدالله بن سلام ص ٣٩٣ . الطبعة الأولى ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨ م هـ ـ القاهرة ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية .
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٩٦ .
(٣) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد م ٣ ص ١٢٦ .
(٤) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد م ٣ ص ١٠٧ .

.... «وسئل عثمان عن رجل يجامع امرأته ولم يمن ، فقال عثمان ، يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ، ويغسل ذكره ، ثم سمعته من رسول الله ﷺ ، فخرج السائل فسأل عن ذلك علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وأبي بن كعب ، وأبا سلمة ، فكلهم أجابوا كما قال عثمان ، وقالوا سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ »(١) .

وهذا يدل على حرص الصحابة والزبير بن العوام كما ورد اسمه هنا صراحة ، على حفظ سنن الرسول ﷺ ، وأحكامه وأحاديثه وتقاليده بعد وفاته ونقلها بأمانة ، ونشرها بين المسلمين كما كان يطبقها الرسول ﷺ في حياته ، وهذا ما جعله (أي الزبير) أن يشار اليه مع أجلاء الصحابة بالبنان في المساءلة والمراجعة والأخذ برأيه بثقة تامة لا ريب فيها .

وجاءت نفس هذه الرواية بطريقة أخرى ، وذلك عن يزيد بن خالد الجهني قال : سألت عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل فلا ينزل ! ، قال فليس عليه غسل ، فأتيت طلحة والزبير وأبيّ بن كعب ـ رضي الله عنهم ـ فسألتهم فقالوا مثل ذلك عن رسول الله (٢) .

وأشرف ما نسجله له ونذكره عنه في عهد عثمان بن عفان ، هو فرحه الكبير باشتراك ابنه عبدالله في فتح شمال أفريقيا وذلك اعتماداً عن هشام عن عروة أن عبدالله بن سعد بعث عبدالله بن الزبير من أفريقية ، فدخل على عثمان فجعل يخبرهم بلقائهم العدو وما كان في تلك الغزوة ، فأعجب عثمان . فقال له : تستطيع ، أن تخبر الناس بمثل هذا ! قال : نعم ، فأخذ بيده حتى انتهى به الى المنبر ، ثم قال : اقصص عليهم ما أخبرتني ، فتلكأ عبدالله بدءاً،

---

(١) كشف الغمة/ الشعراني/ ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٥ . نشر مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده طبع القاهرة ـ بلا تاريخ .

(٢) موضح اوهام الجمع والتفريق ج ٢ ص ٢٤٦ .

فأخذ الزبير قبضة حصباء وهم ان يحصبه بها ، ثم تكلم كلاماً أعجبهم . . . فكان الزبير يقول : اذا أراد أحدكم ان يتزوج المرأة فلينظر الى أبيها وأخيها ، فلن يلبث أن يرىٰ ربيطة منها ببابه ، لما كان يرىٰ من شبه عبدالله بن الزبير بن العوام ، بأبي بكر الصديق(١) .

وجاء الخبر بإسلوب آخر : وبعد ان فرغ عبدالله بن الزبير - من الكلام على المنبر - ملأهم عجباً بفصاحته وتمكنه من الكلام البليغ ، . . نزل عثمان - من المنبر - لأنه كان مع عبدالله ، وقام عبدالله متوجهاً إلى أبيه ، فأخذ أبوه يده وقال مفتخراً :

إذا اردت أن تتزوج امرأة فانظر الى أبيها وأخيها قبل أن تتزوجها ، كأنه يشبهه ببلاغة أبي بكر الصديق رضي الله عنه(٢) .

والحق يقال بان عبدالله بن الزبير كان يحمل صفة أبي بكر في التشبه كما قال أبوه الزبير وفي البلاغة من خلال مقارنتنا إياهما في مأثوراتها الباقية ، ويحمل في نفس الوقت شجاعة أبيه الزبير بن العوام ، والمتتبع لحياته يلاحظ من خلال المغامرات والحالات الخطرة التي أحاطت به لا تختلف في شدتها وصعوبتها عما أحاطت بالزبير، وكلاهما استشهدا وقتلا غدراً أو ظلماً .

الزبير والأيام الأخيرة من خلافة عثمان (رض)

حدثت في خلافة عثمان أمور جديدة وخاصة في النصف الأخير من خلافته ، حادت عما كان يسير عليه الوضع في حكم الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر . ولقد رأينا - من جملة ما رأينا - عدم اكتراث عثمان بأهل الشورىٰ

(١) فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٦ .
(٢) فتوح مصر واخبارها ص ١٨٦ كذلك .

والسماح لبعضهم كالزبير بالإنصراف الى التجارة وشراء الأملاك والتنقل في البلاد الإسلامية مع مساس الحاجة والضرورة إليه وإلى أمثاله ، ثم مجيء أقربائه الى الحكم بواسطته ، ومنهم من ارتقىٰ منزلاً عالياً في الوظيفة مثل مروان بن الحكم ، ويبدو ان عثمان اهمل اهل الشورى الذين كانوا يمثلون الأساس المساند للحكم في عهد عمر ، وأهل الشورىٰ كلهم من المؤسسين الأوائل للإسلام وأهل السوابق الفاضلة . . . . وواقع الحال يقرر ان منزلة مروان قد علت وأصبح أكبر شخصية سياسية بعد الخليفة عثمان ، وشتان بين سوابق أهل الشورىٰ وزراء حكومة عمر بن الخطاب ، وبين سوابق الرجل الثاني لدولة عثمان بن عفان الآنف ذكره .

هذا في الوقت الذي كانت فيه الأحقاد لا زالت مخبوءه بصورة جمرات محمومة في قلوب البعض وخاصة أولئك الذين ضرب الإسلام مصالحهم ، ومن أسلم من اليهود ظاهراً ، وممن دخل الإسلام حديثاً ولم يترسخ في أعماقه الإيمان القوي ، بل ولم تتكامل لديه الفكرة العامة عن الإسلام . . وقد كانت توجد منهم فئات في مصر ، والكوفة ، والبصرة ، والشام ، هؤلاء من جانب كانوا يخططون بدهاء ومكر لهدم الإسلام والإضرار به . . . . . . ونرىٰ من الجانب الآخر ، عليّاً والزبير وطلحة وغيرهم يمثلون مصلحة الإسلام ومستقبله ومصلحة الخليفة عثمان بالذات . . . ، لكن غليان الفتنة التي فارت بين القلوب الشريرة، أدىٰ الى استغلال ثغرات الضعف في الوضع السياسي ، وجرّ الى استفحال الخطر وتفاقمه وتهديده لمستقبل ووحدة الأمة الإسلامية ، والنسيج الغريب من أمرهم ، وهو مجيئهم من أماكن مختلفة كالكوفة ومصر والبصرة ، ومن ثم تجمعهم في المدينة ، وكأنهم على مواعيد مضبوطة ومتفقين معاً . أو كأن هناك عناصر متحركة ومتنقلة بين هذه الامصار لتحريضها وإغرائها للتوجه الى العاصمة الإسلامية ـ المدينة ـ حيث مقر دار الخلافة ان صح التعبير .

فمما جاء في هذا الصدد ، في حاشية العواصم من القواصم :[1]

ان الفتنة كانت منظمة ومدبرة من قبل أيادي السبئيين[2] إذْ أنهم زوروا الرسائل على ألسنة الصحابة ومنهم علي وطلحة والزبير ، . . . فمثلاً الرسائل التي زورت على لسان الزبير وطلحة وعائشة هي التي رتبت الفساد ، وهي التي طبخت الفتنة من اولها الى آخرها ، وهي التي دبرت الرسالة المزعومة على لسان عثمان الى عامله بمصر في الوقت الذي كان يعلم فيه ـ يعني عثمان ـ انه لم يكن له عامل بمصر ، . . بما هو مذكور . . ، . . وكان هذا التزوير هو السبب المباشر والأخير ، بل ونقطة الإشارة الخضراء ، والذريعة القوية ، لتشبث القادمين من العراق ومصر بالمكوث بالمدينة بشدة وإصرار ، لا لشيء إلا لاشتعال الفتنة ، والقضاء على شخصية عثمان الذي قتل ظلماً وغدراً ، والذي لم يكن يتوقعه الصحابة الكرام ، وجعلهم في مأزق خطير وانحراج شديد ومحنة بالغة .

جاء في تاريخ ابن خياط . . . «عن مسروق قال : قالت عائشة : تركتموه ـ يعني عثمان ـ كالثوب النقي من الدنس ، ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش ، قال مسروق : فقلت : هذا عملك ، كتبت الى الناس تأمرينهم بالخروج عليه ، فقالت عائشة : والـــذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ، ما كتبت اليهم بسواد في بياض حتى جلست مجلسي هذا . قال الأعمش : فكانوا يرون أنه كُتب على لسانها»[3] .

وفي أيام حصار عثمان جاء في تاريخ الطبري ، ص ١٢٩ ، انه (كان

---

(١) العواصم من القواصم/ القاضي بن العربي ص ٥٩/ الحاشية . تحقيق ونشر وتعليق الاستاذ محي الدين الخطيب طبع في القاهرة في رمضان سنة ١٣٧١ هـ .
(٢) المقصود بهم عبدالله بن سبأ وزمرته .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

آخر من خرج، عبدالله بن الزبير، من عثمان وأمره أن يصير إلى أبيه بوصيته التي كتبها)، استعداداً للموت. . . وإنما أوصى عثمان الى الزبير، لأن الزبير كان محل الثقة والجدارة من كبار الصحابة ـ ولم يكنْ أفضلهم ـ ويدلنا على ذلك ما رواه ابن عساكر : أن سبعة من الصحابة وهم عثمان وعبدالرحمن بن عوف، وابن مسعود والمقداد ومطيع بن الأسود وأبو العاص بن الربيع، فكان رضي الله عنه، ينفق على أبنائهم من ماله ويحفظ لهم أموالهم[1].

وفي أيام الفتنة الخطرة، وتجمع الثوار في المدينة، وحصر عثمان، « جاء بنو عمرو بن عوف إلىٰ الزبير، فقالوا يا أبا عبدالله، نحن نأتيك ثم نصير إلىٰ ما تأمرنا به (أي اتخاذ الإجراء اللازم في الدفاع عن أمير المؤمنين عثمان المحصور)، فقال : أبو حبيبة : فارسلني الزبير إلى عثمان، فقال : أقره السلام، وقل يقول لك أخوك أن بني عمرو جاءوني ودعوني أن يأتوني ثم يصيروا إلى ما أمرتهم به، فان شئت أن آتيك فأكون رجلاً من أهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم، فعلت. وان شئت انتظرت ميعاد بني عمرو بن عوف، فادفع بهم عنك، فعلت ».

« قال أبو حبيبة » : « فدخلت عليه (عثمان) فوجدته على كرسي ذي ظهر، ووجدت رباطة مطروحة ومراكن مغلوة، ووجدت في الدار حسن بن علي وابن عمر وأبا هريرة، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، وعبدالله بن الزبير، فابلغت عثمان، رسالة الزبير، فقال : الله اكبر، الحمد لله الذي عصم أخي! قل له انك ان تأتي الدار تكن رجلاً من المهاجرين حرمتك حرمة رجل وغناؤك غناء رجل ولكن انتظر ميعاد بني عمرو فعسىٰ الله ان يدفع بك ». « قال : فقام أبو هريرة، فقال : أيها الناس سمعت أذناي رسول الله ﷺ يقول : تكون بعدي فتن وأحداث، فقلت : وأين النجاء منها يا رسول الله ـ ﷺ قال : الأمير وحزبه، وأشار إلى عثمان ».

(١) العواصم من القواصم ص ١٣٣، الحاشية.

« فقال القوم : إئذن لنا فلنقاتل فقد أمكنتنا البصائر ؟ فقال عثمان : عزمت على أحد كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل . قال : فبادر ـ أي سبق ـ الذين قتلوا عثمان ميعاد عمرو بن عوف فقتلوه »[١] .

ويجب ان لا ننسىٰ نقطة مهمة ، وهي أن نظرة الناس في خلافة عثمان وقبل نشوب الفتنة كانت جليلة الى كل من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، توقعاً منهما ،ان يملأ فراغ الحكم بعده ، وكان معاوية لا تعجبه ولا تسره تلك الاحتمالات العامة والمتوقعة في انتقال الخلافة إلى كتلة علي والزبير ، ولتأكيد كلامنا فلنقرأ معاً ما قاله الطبري في هذا الصدد فقد جاء : « عن رجل من بني أسد ، قال ما زال معاوية يطمع فيها بعد مقدمه على عثمان ، حين جمعهم ، فاجتمعوا اليه في الموسم ، ثم ارتحل ، فحدا به الراجز :

أن الأمير بعده علي وفي الزبير خلف رضي »[٢] .

نرجع إلى موضوعنا ونستمر فنقول :

بقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام بلا خليفة ، يأتي المصريون علياً فيختبىء منهم ، ويلوذ بالحيطان أي في بساتينها ، وإذا لقوه ، باعدهم وتبرأ منهم ، وكذلك يطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، فتبرأ منهم ، وكذلك يطلب طلحة البصريون فيتباعد عنهم ويتبرأ مقالتهم[٣] .

وهذه الوقائع المؤلمة ان دلت على شيء فإنما تدل من وجه صحيح ، على انفلات الأمور وتفاقم الأحوال ، في الوقت الذي كان ذلك لا يجري على رضا الصحابة الكبار بل على غير علمهم وتوقعهم بتطور الأحداث الى هذه الدرجة من الخطورة . . . وأخيراً وبعد إلحاح الناس وطلحة والزبير وبإجماع الصحابة

---

(١) العواصم من القواصم ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ، الحاشية .
(٢) تاريخ الملوك ـ الطبري ج ٣ ص ٣٨١ تحت حوادث ٣٥ هـ .
(٣) العواصم من القواصم ص ١٤٢ الحاشية .

وضغط الوافدين من الأمصار ، تمت بيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
وبانتخاب علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين ، ينتقل التاريخ الإسلامي السياسي الى صفحة جديدة ، ومرحلة مشحونة بتتابع المشاكل وتزاحم المحن ، وليس لعلي من الأمر والحول الا اللجوء إلى الله والإعتماد على الصبر .

الزبير في عهد علي (رض)

الزبير بن العوام بن عمة علي بن أبي طالب ، وأبوه العوام خال زوجته فاطمة بنت النبي محمد ﷺ ، وهو بالإضافة الى قرابته من الإمام علي وفق الأعراف والتقاليد الإجتماعية ، فانه يرتبط معه برباط روحي متين تمتد جذوره إلى الأيام الأولىٰ من عمر الدعوة الإسلامية ، فهما بلا شك من المسلمين الأوائل الذين اطلق عليهم الرسول ﷺ ـ العشرة المبشرة ـ وهما في أكثر من موقف اشتركا في تحمل أجسم المسؤوليات وأثقلها عبئاً ، وكانت علاقاتهما على أحسن ما يرام في عهد الرسول ﷺ ، اعتباراً وامتداداً من أيام وجودهم في مكة ثم في مستقرهم الجديد بعد الهجرة الى المدينة ، واستمر الصفاء بينهما الى نهاية حياة النبي ﷺ ، وبعد وفاته مباشرة كان الزبير ممن يرىٰ أن تنتقل الخلافة إلى علي بن أبي طالب ، كما ـ والحق يقال ـ لم يصدر حتى ولا خبر شارد ينوه عن السلبية بينه وبين علي بن أبي طالب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، والجدير بالذكر هنا أنه ، قبل الأيام الأخيرة لوفاة عمر بن الخطاب ، وعندما أختلىٰ عمر به حول الخلافة قال الزبير له : نصيبي لعلي[1] .

وبالمقابل كان الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقدر للزبير بن العوام قرابته ومكانته وصداقته ومواقفه معه حتى كان يعتبره أحد بني هاشم .

يكاد يتفق جميع المؤرخين على أن الزبير وطلحة كانا من اسرع الناس وأولهم في مبايعة علي بن أبي طالب ، في الخلافة من بعد استشهاد عثمان بن

---

(١) تاريخ الملوك للطبري ج ٣ ص ١٩٩ .

عفان ، وتبعها عامة الناس بعد ذلك .

إلا أن المؤرخ الطبري ينحى مذهباً انفرادياً من دون المؤرخين في رصد الروايات حول هذه النقطة . . . فلنتابعه في قراءة تسجيلاته التي تيسرت له ، فيقـــول : « وسأل طلحة والزبير ، أن يؤمرهما الكوفة والبصرة ، فقال : تكونان عندي ، فأتحمل بكما فأني وحش لفراقكما »[1] .

ويستأنف الطبري « وقال الزهري ، وقد بلغنا انه ـ أي علي ـ قال : إن أحببتما أن تبايعا لي ، وان احببتما بايعتكما ، فقالا : بل نبايعك ، وقالا بعد ذلك : إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، وقد عرفنا أنه لم يكن يبايعنا ، فظهرا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر »[2] .

وجاءت الرواية بشكل مقارب للأولى لكن فيها شيء يسير من الإختلاف : وطلب طلحة والزبير من علي أن يوليهما المصريـن البصرة والكوفة ، فقال : بل تقيمان معي فأني لا أستغني عن رأيكما » ، وقد نقل هذه الرواية السيد محسن العاملي في كتابه حرب الجمل ويبدو انه يلف لف الطبري وينقل منه في كتابه المذكور في مواضع متعددة كهذه الرواية وأمثالها[3] .

ويكمل أبي حنيفة الدينوري في كتابه الأخبار الطوال فيقول « وحضر الموسم فاستأذن الزبير وطلحة علياً في الحج فأذن لهما ، وقد كانت عائشة أم المؤمنين خرجت قبل ذلك معتمرة ، وعثمان محصور ، وذلك قبل مقتله بعشرين يوماً فلما قضت عمرتها أقامت ، فوافاها الزبير وطلحة » « قالوا : ولما قضى الزبير وطلحة وعائشة حجهم ، تآمروا في مقتل عثمان ، فقال الزبير

---

(١) تاريخ الملوك للطبري ج ٣ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ تحت حوادث ٣٥ هـ .
(٢) تاريخ الملوك للطبري ج ٣ ص ٤٥٢ .
(٣) حرب الجمل للسيد محسن العاملي ص ٧ .
(٤) الاخبار الطوال ص ١٤١ .

وطلحة لعائشة : ان أطعتنا طلبنا بدم عثمان ، قالت : وممن تطلبون دمه ؟ قالا : انهم قوم معروفون وانهم بطانة علي ورؤساء أصحابه »(١) .

وجاء في الأخبار الطوال كذلك أن علي بن أبي طالب قال في محاورة له مع ابنه الحسن عن خبر محاصرة عثمان . . . « . . . وقد كان الناس أحاطوا بيّ كما أحاطوا بعثمان »(٢) .

نكتفي بهذه الكمية من الروايات ، ولنتفرغ بعد ذلك الى تناولها وفحصها وتحليلها الى افكار تاريخية ، معتمدين في ذلك على الإجتهاد الخالص ، وتقرير الصواب ، وعدم التعثر في الخطأ ، وإحقاق الحق ، والإستنباط الواضح الخالي من الأهواء والأغراض ، رائدنا من ذلك خدمة الحق والله من وراء القصد .

والآن نطرح منهاجنا النقدي في وجه هذه الروايات الواردة ، والآراء المختلفة ، خدمة للتأريخ وإثباتاً للحقائق فنقول :

نحن الآن أمام أقوال عدة ، وغير منسجمة مع بعضها ، . . أولاً : فقبل كل شيء ، ان مبايعة طلحة والزبير للإمام علي بن أبي طالب بالخلافة لا شك فيها ، وثانياً ان خروجهما كان لأداء الحج ولوجه الله لا غيره ، ولو كان في خروجهما شك من جانب علي لكان الأمر على العكس من ذلك وهو ان طلحة والزبير كان بإمكانهما عدم البيعة منذ البداية ، وحتى ان علياً بن أبي طالب - بالذات - لو كان يعلم بان من وراء خروجهما ، تتابع الفتن وظهور المشاكل واشتعال الشرور المخيفة ، لكان بإمكانه ان يضع العراقيل المعقولة والأعذار الشرعية والأساليب الإسلامية المختلفة أمام خروجهما ومنعهما من ذلك ، مستنداً على العلاقات المتماسكة التي تربطهم وقرابتهم وصداقاتهم، وصلات أخرىٰ متعددة ، وأقواها وأتوجها رباط الايمان بالعقيدة والاتفاق في المبادىء والمثل .

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٤٤ .
(٢) الأخبار الطوال ص ١٤٦ .

وثالثاً ، هناك نقطة مهمة جداً ، وهو أن طلحة والزبير لم يكونا يتوقعان تغيرهما من خروجهما إلى مكة الى خروجهما على علي بن أبي طالب ، في مستقبل الأيام . وخاصة حين اجتماعهما مع عائشة ، بل ولم تكن تدري عائشة انها كذلك تتورط فتخرج ، ولم يكن الخروج من اقتراحها مطلقاً كما سنرى ذلك فـي محاورة بين الإمام علي والسيدة عائشة ، قالت جوابا عـن سؤال الإمام علي وهو يلومها لخروجها « فقالت : أبا حسن غُررت وخُدعت وقيل لي : تصلحين بين الناس .

فقال : ما أنتِ والإصلاح بينهم ؟ ! إنما أمرتِ أن تقري في بيتك .

قالت : أستغفر الله ، وقد ملكت فاسجح .

قال علي : لا تثريب عليك ، يغفر الله لك .

ثم أمر فحملت بالهودج الى قصر بن خلف الخزاعي »(١) كانت هذه المواجهة مباشرة وبعد إنتهاء معركة الجمل بين الإمام علي بن أبي طالب والسيدة عائشة أم المؤمنين .

ومهما يكن من أمرٍ فان طلحة والزبير كانا عند ذهابهما الى مكة لأداء فريضة الحج ومن بعد استئذانهما الإمام علي بن أبي طالب بالخروج وبموافقته ، مضطربي البال . وكان الإزعاج من قتل عثمان قد بلغ مبلغه من نفسهما ، وبعد اجتماعهما مع عائشة ، كان أهم ما شغل أحاديثهم ، التحدث عن قضايا الساعة المثيرة ؟

عن قتل عثمان !!!!

عن الهول والمصيبه ، عن الرجل الذي خدم وضحىٰ ما ضحى من أجل

---

(١) وقعة الجمل . تأليف محمد بن زكريا بن دينار الغلابي البصري رواية محمد بن يحيى بن عبدالله بن العباس الصولي ص ٤٦ . الطبعة الأولى ـ مطبعة المعارف ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ . تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين .

الإسلام بما لا شك فيه ، وظل مخلصاً لربه ونبيه والمسلمين . . . . عن رفيق النضال معهم ، والذي قتل غدراً ، ولم يكن يجني شيئاً .

ومما يؤكد على عدم تغيير نياتهـم منذ البداية هو لجوء بعض الامويين ومنهم مروان بن الحكم واللحوق بسرعة الى مكة ، وهذا مما أدى إلى تعكيس الأمور وتعدد صيغها وتطور الكلام ودخول القوم في أمرٍ مريب وعصيب جداً في نفس الوقت .

ومما سنزيد في تأكيده كذلك أن كثيراً من أهل النفاق والأغراض الدنيئة والنيات الخبيثة والذين من ضرب الإسلام مصالحهم الشخصية وقيمهم السائدة سابقاً ، والذين لم يختمر مفهوم الدين في مشاعرهم . . . انتهزوا الفرصة وكثرت أقاويلهم وأثاروا النفسيات وأدخلوها في جدليات وتصايحـات ونزاعات متعاقبة .

وفي رأي : أنه كانت هناك بالإضافة إلى ما ذكرنا عناصر أخرىٰ حاقدة جداً على الإسلام . وإن هذه العناصر اندفعت اندفاعاً عارماً في محو رسوم الإسلام ، ولها سوابق سوداء ، قبل فتنة عثمان ، وخاصة دورها في افتعال ضجـة الردة في عهد أبي بكر حيث كـان لها ضلعٌ كبير في تأجيج نيرانها ، وكان المجال على هؤلاء الحاقدين ضيقاً بل ولم يجدوا لهم متنفساً في عهد عمر في التشويه والعبث والعمل على مسخ الإسلام ، ما دامت الأمة متماسكة وعلى رأسها خليفة حازم ، يحسب لكل شيء قدراً من الوزن الصحيح والمتضح بروحٍ من الحرص والضبط والإدارة المرتسمة في إطار عقلي حكيم ورشيد .

ولما جاء عهد عثمان وخاصة في نهايـة فتـرة حكمه ، وجدوا الجو مناسباً لحياكة خيوط التآمر ، وكانت هذه الزمرة منتشرة في ديار الإسلام ، وكلهم متصلون على شكل حلقات . . . . فهـم في المدينة ، وفي مكة ، وفي العراق ، وفي مصر وفي مناطق أخرىٰ ، بل وإذا اردنا تحديد أهم مكان لنقول حتى في الشام كذلك ، بله عنك الأمصار الإسلامية المتعددة .

ويظهر أنهم كانوا يتصافحون مع كل من يجدون فيه نوعاً من التقارب مع أغراضهم ودسائسهم ، وكانوا يجندون المال بسخاء ، ويبثون الأراجيف ، ويستعملون جميع الصور والأساليب والصيغ وحتى التضحية بالمستحيل ، لا شيء إلا لإشعال موجات الفتن هنا وهناك ، لتحقيق مآربهم المخفية والإنتقام لمصالحهم المضروبة .

وفي رأي ن هذه الزمر والحثالات القذرة كانت على درجة فائقة من الدهاء والتخطيط والخبث ونفث السموم ، وكانوا يرون أن خيروسيلة للقضاء على الإسلام هو انقسام المسلمين بين انفسهم الى شيع وتكتلات متعارضة ، وخاصة تمزيق الروابط الوثيقة بين الصحابة الأوائل فيما بينهم ، لأنه بتفرقهم واختلافهم يتفرق ويختلف المسلمون إلى أن يتلاشى نوره حسب تصوراتهم الفاسدة .

وهكذا تمكنوا من إشعال الإضطرابات وإيجاد الثغرات في عهد عثمان والتي أدت إلى استشهاده ، وكانت لا تخلو منهم مدينة آنئذٍ ، . . . ولم يشفِ غليلهم من قتل عثمان فقط ، بل سعوا في توريط الصحابة فيما بينهم ، وإشغال بعضهم بالبعض الآخر ، لذلك سارعوا لتهويل الأمور في مكة واستغلال فرصة الحج ، حيث اجتماع الناس هناك ، واعتقدوا ان لحوقهم بمكة سيكسبهم مزيداً من المؤيدين ، وكانوا قاصدين طلحة والزبير بالذات ، والا فليس من المعقول ان تكون فتنة بالأمس القريب علىٰ عثمان ، وفتنة تالية على علي بعد ذلك بأيام قريبة ، ان لم تكن هناك أصابع مشبوهة تمسخ الوحدة الشعورية وتلوثها وتمزقها بشراسة وجرأة وقحة وصفاقات متدانية .

وباعتقاد جميع هذه العوامل التي باضت وفقست وفرخت وأسباب أخرىٰ ، من أهمها سلاح الإشاعة المغرضة الموجهة ، وتحت هذه الظروف النحسة والمزعجة جداً أخذ كل منهم وبصورة لا شعورية يشتبه بنفسه ويوجه اليها الإتهام بحمل وزرٍ ثقيل ، تجاه دم الخليفة البريء والمراق غدراً

وظلماً ، ، . . وتسرب الظن المظلم إليهم كذلك من خلال هذه الضوضاء الضخمة من الدعايات والقال والقيل بان قتلة عثمان . . منهم في جيش علي ومنهم بل وأكثرهم في الكوفة والبصرة ومصر ، فتجهزوا للتوجه الى البصرة واختيارها قبل غيرها . . بعد ترددات من عائشة ، وهم لا يعرفون انهم ارتقوا مسلكاً شائكاً .

هكذا أراد أهل لفتنة ان يتحطم الإسلام ويتدهور في القلوب ويتفرق اتباعه يميناً وشمالاً إلى أن ينتهي ، متخذين الإشاعات والأراجيف وبث الدعايات من أهم الأسلحة الفتاكة في تنفيذ أغراضهم . لتفريق الصحابة الكرام أولاً فيما بينهم ، ومن ثم تقسيم المسلمين وتدهورهم .

جاء في تاريخ خليفة بن خياط عن بشر بن المفضل قال : حدثنا منصور بن عبد الرحمن « عن الشعبي فال : من حدثك انه شهد الجمل من أهل بدر غير أربعة إن جاءوا بخامس ، كان علي وعمار ناحية ، وطلحة والزبير ناحية »[1]

وكان عسكر عائشة ٣٠ ألفاً في البصرة[2] ، ولما علم علي ، وكان آنئذٍ بالمدينة بتحرك عساكرهم ، اسرع بالوصول اليهم وكان عدد جيشه ١٢ ألفاً[3] ، ويظهر أنه لم يكن في بال الزبير وطلحة القتال ، إذ حالما وصلوا البصرة فاجأوا الناس ، بالطلب بدم عثمان ، ويبدو الإمام علي بالمقابل ، انه كان اشد منهم حرصاً على حفظ الدماء ، واللجوء إلى التفاهم ، والتأريخ بدوره يؤكد كلامنا هذا فيما ورد فيه من روايات أكيدة في هذا الصدد .

« وأقام علي رضي الله عنه ، ثلاثة أيام يبعث رسله ، الى أهل البصرة ، فيدعوهم الى الرجوع الى الطاعة ، والدخول في الجماعة ، فلم يجد عند القوم

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٥ .
(٢) حرب الجمل للسيد العاملي ص ٣٦ .
(٣) حرب الجمل للسيد العاملي ص ٣٦ كذلك .

إجابة ، فزحف نحوهم يوم الخميس لعشر مضين من جمادى الآخرة وعلى ميمنته الأشتر ، وعلى ميسرته عمار بن ياسر ، والراية العظمى في يد ابنه محمد بن الحنفية ، ثم سارعوا نحو القوم حتى دنا بصفوفٍ من صفوفهم فواقفهم من صلاة الغداة الى صلاة الظهر يدعوهم ويناشدهم وأهل البصرة تحت رايتهم وعائشة في هودجها أمام القوم »[1] .

وتأتي الرواية بشكل آخر في تاريخ خليفة بن خياط فيقول : « قال ابو اليقظان : كانت راية علي مع ابنه محمد بن علي » و « قال أبو عبيدة : على الخيل عمار بن ياسر ، وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر . وعلى الميمنة ـ وهم ربيعة البصرة والكوفة ـ علباء بن الهيثم السدوسي ، ويقال عبدالله بن جعد وعلى الميسرة ـ وهم مضر البصرة ومضر الكوفة ـ الحسن بن علي ، قال : ويقال : على الميمنة الحسن ، وعلى الميسرة الحسين بن علي »[2] .

« ولواء طلحة والزبير مع عبدالله بن حكيم بن حزام . وعلى الخيل طلحة ابن عبيد الله . وعلى الرجالة عبدالله بن الزبير ، وعلى الميمنة ـ وهي مضر ـ عبدالله بن عامر ويقال : : عبـــدالله بن الحارث ، وعلى الميسرة ـ وهم أهل اليمن ـ مروان بن الحكم »[3] .

وجاء في (كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان) ما يؤكد على مسألة التفاوض على الصلح فقد قال :

« ثم لما وصل (الإمام علي) الى العراق ليردهم (يعني طلحة والزبير وعائشة) الى طاعته ، خرج معه أهل الكوفة ، وخرج معهم أهل البصرة ، وحاول الصلح والرجوع الى مبايعته ، فلما عزموا عليه (يعني الصلح) ثار الأشرار ، ورموا بين الفريقين النار ، حين خافوا ان يصطلحوا ، على ما يسوء

(١) الأخبار الطوال ص ١٤٧ .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٠٣ .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٠٤ .

الفجار ، من إقامة الحدود والأخذ لدم عثمان بالثأر ، فاشعلوا نار الحرب بالليل حتى الرجالة والخيل ، وجرى دماء الفريقين كالسيل . . »[1] ويعني هذا ان اشتعال الحرب بالليل كان مدبراً للتخريب على الطرفين ومنع الصلح بينهم .

وستطيع أن نستشف من خلال عرضنا لهذه السطور ونحتمل بانه قد حدثت بعض المناوشات الجانبية بين الطرفين ، وكانت النيات صادقة حتى تلك اللحظة، وأراد القوم أن يتفقوا على إيقاف القتال لولا جهل الجهلاء المتعمدين والمغرضين وغير المتعمدين من الطرفين .

ولقد كانت الإتصالات المتبادلة جارية لم تنقطع بين الطرفين من أجل الصلح ، ومن أولىٰ محاولات السلام والصلح المبكرة ، هي السفارة الإصلاحية التي هيأتها أخلاقية الإمام علي الفاضلة لأخيه الزبير بن العوام ، وقد رأينا أنه من الأمانة ان ننقلها بحذافيرها لكي يلمس القارىء بنفسه مدى حرص الإمام علي والصحابي الجليل الزبير بن العوام وجميع الصحابة والقادة على إيقاف القتال والعودة الى الصفاء ، هو ما نقله الجاحظ في الجزء الثالث من كتابه البيان والتبين فقد ورد فيه :

« قال عبدالله بن مصعب ، قال : ارسل علي بن أبي طالب رحمه الله عبدالله بن عباس ، لما قدم البصرة ، فقال : إيتِ الزبير ولا تأتِ طلحة ، فان الزبير ألين ، وانك تجد طلحة كالثور عاقصاً قرنه ، يركب الصعوبة ويقول هي أسهل ، فأقرئه السلام ، وقل له : يقول لك ابن خالك ، عرفتني بالحجاز وانكرتني بالعراق ، فما عدا مما بدا لك !

قال : فاتيت الزبير .

فقال : مرحباً يا ابن لبابة ، أزائراً جئت ، أم سفيراً ؟

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ١ ص ٩٦ تحت حوادث ٣٦ هـ .

قلت : كل ذلك . وأبلغته ما قال علي .

فقال الزبير : ابلغــه السلام وقل له : بيننا وبينك عهد خليفة ، ودم خليفة ، واجتماع ثلاثة ، وانفراد واحد ، وأم مبرورة ومشاورة العشيرة ، ونشر المصاحف ، فنحل ما أحلت ، ونحرم ما حرمت .

فلما كان من الغد حرّش بين الناس غوغاؤهم . فقال الزبير : مـا كنتُ أرى ان مثل ما جئنا به يكون فيه قتال ! »[1] .

ومن خلال دراستنا اتضح مما هو وارد حول مسألة الصلح والإصلاح : انه بينما كاد طلحة والزبير وعائشة ان يتفاهموا ويتجاوبوا مع نداءات الإمام علي الإصلاحية ، ودعواته النيرة ، إلى إيقاف القتال ، والتفاوض على رد الأمور الى نصابها ، كان حكيم بن جبلة يسعى في نشوب الحرب ، واستمرار التخاصم لئلا يتم التفاهم والتوافق[2] .

ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصـرة : ألا من كان فيكم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم ؟ فجيء بهم فقتلوا ، وما أفلت منهم إلا حرقوص بن زهير من بني تميم[3] .

يتضح لنا من تتابع مجريات الأحداث ، ان الدساسين لم تـرقْ لهم الوفاض والمصالحة ، لان أغراضهم تهدف عكس ذلك ، فنشطوا من جديد للقضاء على آخر أمل لتقارب وجهات النظر والإصطلاح . . . وتقابل الجيشان ولما رأى الزبير أن : « عماراً مع علي (رض) ارتاب بما كان فيه لقول رسول الله ﷺ ، الحق مع عمار وتقتلك الفئة الباغية »[4] .

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٨٣ دار الفكر للجميع ١٩٦٨ بيروت عقص قرنه : عطفه ، يراجع حاشية كتاب البيان والتبيين الجزء الثالث كذلك الصفحة ١٨٣ .
(٢) العواصم من القواصم/ الحاشية/ ص ١١٦ .
(٣) العواصم من القواصم/ الحاشية/ ص ١١٦ كذلك .
(٤) الاخبار الطوال ص ١٤٧ .

نقل لنا ابن منظور في كتابه ـ مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ـ ان عليا رضي الله عنه قال : « مُنيت (أو بُليت) بأطوع الناس في الناس ، عائشة ، وبأدهى الناس طلحة ، وبأشجع الناس الزبير(*) وبأكثر الناس مالاً يُعلىٰ بن منية ، وبأجود قريش عبدالله بن عامر ! »(1) .

« فقام اليه رجل من الأنصار فقال له : والله يا أمير المؤمنين لأنت أشجع من الزبير وأدهىٰ من طلحة وأطوع فينا من عائشة ، وأجود من ابن عامر ولمال الله اكثر من مال يُعلى بن منية وليكونن كما قال الله تعالى وتقدس . . ﴿ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾ ، فسُرَّ علي عليه السلام بقوله ثم قام رجل آخر منهم فأنشده :

أما الزبير فاكفيكه وطلحة يكفيه وحوحه
وعائش يكفيها واعظ وعائش في الناس مستنصحة
فلا تنزعجن فان الأمور إذا ما أتيناك مستنجحه
وما يصلح الأمر إلا بنا كما يصلح الجبن بالأتفحه

فسُر علي عليه السلام بقوله ، وقال : بارك الله تعالىٰ فيك ودعا له »(2) .

قال ابن منظور : « فأما الزبير فناشده علي يومئذٍ فرجع فقتله بنو تميم ، وأما طلحة فناشدة وحوحة ، وكان صديقه ، وكان من القراء ، فذهب ، لينصرف فرماه رجال من عسكرهم بسهم فقتله »(3) .

وفي مروج الذهب « ثم نادىٰ علي رضي الله عنه طلحة حين رجع الزبير »(4) كما جاء في حاشية كتاب وقعة الجمل الصفحة (41) من قبل

(*) يصف الإمام علي كرم الله وجهه الزبير بانه أشجع الناس ، وهل بعد وصف الإمام علي وحكمه على شجاعته وتقديره لها من تعليق .
(1) مختار الاغاني في الاخبار والتهاني ج ٨ ص ٣٧٧ .
(2) مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ج ٨ ص ٣٧٨ لابن منظور .
(3) مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ج ٨ ص ٣٧٨ كذلك .
(4) مروج الذهب ٢٤٨/٢ ، المسعودي القاهرة ١٣٥٧ .

محقق الكتاب وطوبق مع الأصل .

وفي كتاب وقعة الجمل نفسه للغلابي البصري جاء في صدد اللقاء بين علي وطلحة « ولقي علي ـ عليه السلام ـ في حملته طلحة فقال : يا أبا محمد ما أخرجك ؟ قال : الطلب بدم عثمان ، فقال علي : قتل الله قاتل عثمان ، أما تذكر يا أبا محمد قول النبي ﷺ : اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ، فقال طلحة : أستغفر الله ، لو ذكرتها ما خرجت »(١) .

« فرجع ـ يعني طلحة ـ فقال مروان : فلما رأيت طلحة قد رجع قلت : ما أبالي أرميت بسهمي ها هنا أم ها هنا ، فرميت طلحة فأصبت أكحله فقتلته »(٢) . جاء في تاريخ خليفة بن خياط : في رواية منسوبة الى علي بن عاصم قال : حدثنا حصين قال : « حدثني عمر بن جلوان قال سمعت الأحنف بن قيس قال : لما التقوا كان أول قتيل طلحة بن عبيدالله »(٣) .

« وعن يحيىٰ بن سعيد عن عمه قال : رمي مروان طلحة بن عبيد الله بسهم ، ثم التفت الى أبان بن عثمان فقال : قد كفيناك بعض قتلة أبيك »(٤) .

« وعن يحيى بن سعيد ـ كذلك ـ قال : قال طلحة :

ندمت ندامة الكسعي لما   شرب رضى بني جرم برغمي

اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى »(٥) .

وفي رواية .. « عن الأحنف قال : لما انحاز الزبير ، فقتله عمرو بن

---

(١) وقعة الجل ـ الغلابي البصري ص ٤١ ـ ٤٢ .
(٢) وقعة الجمل ـ الغلابي البصري ص ٤٢ .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٤ .
(٤) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٥ كذلك .
(٥) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٠٥ الجزء الأول .

جرموز بوادي السباع »[1] .

وفي رواية جامعة لمقتل كل من طلحة والزبـير : « عن يحيى بن سعيد عن عمه ان مروان رمىٰ طلحة بسهم فقتله وانحدر الزبير منصرفاً ، فقتل بوادي السباع ، قتله عمير بن جرموز المجاسقي »[2] .

يذكر العاملي انه : خرج الزبير في احد الأيام للمبارزة ، فذهب علي اليه بنفسه وقابله وناداه ونادىٰ طلحة وذكرهما بالله في حقن الدماء وإيقاف القتال ، فبدأ بطلحة ثم تكلم مع الزبير[3] وجاء في كتاب وقعة الجمل للغلابي البصري « فخرج علي فركب فرس رسول الله ﷺ المرتجز ولم يأخذ معه سلاحاً ولا سيفاً ولا رمحاً فنادىٰ : يا طلحة يا زبير ، أخرجا إليّ ، فلم يخرجا ، فنادىٰ : يا زبير اخرج إليّ ، فخرج وهو شاكٍ في السلاح . . الخ » وتنتهي المحاورة بينهما بالعناق الحار والتفاهم التام والرجوع عن الحرب والرواية مشهورة تأخذ بها كل الكتب الأساسية في التاريخ .[4] ، ونفس الرواية يقررها الاستاذ العاملي - ولعلها الأقرب الى الصواب - كما يرىٰ ذلك : أن علياً التقى بالزبير وحده في الميدان بعدما دعاه مراراً منادياً: يا أبا عبدالله ؟ ؟ وكان علي حاسراً والزبير دارع مدجج ، فجرىٰ بينهما كلام ، بدأ فيه الإمام أول ما بدأ بتذكير الزبير بن العوام بحديث قاله الرسول ﷺ « تقاتلنه وأنت له ظالم » فيجيب الزبير علياً « صحيح ولكني نسيت » أو بمعنى لو تذكرت ما جئت .[5] ويقال انه قال له « قبل أن ينصرف فاني لا اقاتلك ، ثم انصرف » .[6] .

(١) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٠٥ كذلك .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٠٠ : المشهور ان قاتل الزبير عمرو وهذا ما جاء في جمهرة أنساب العرب لأبن حزم/ تعليق المحقق في الحاشية .
(٣) حرب الجمل - العاملي ص ٣٨ .
(٤) وقعة الجمل - الغلابي ص ٣٨ - ٣٩/ يراجع تفاصيل الرواية .
(٥) وحرب الجمل - العاملي - ص ٣٨ اعتماداً على وقعة الجمل للغلابي ص ٣٨ - ٣٩ . الرواية بأكملها .
(٦) تاريخ الملوك للطبري ج ٣ ص ٥١٩ .

وقد تناول المؤلفان لكتاب الزبير بن العوام ـ سلسلة الأبطال ـ الرواية نفسها واعتمدا عليها وجاء في صدد الموضوع : « واتصل علي بالزبير وجرى بينهما حديث طويل استعمل فيه علي كل وسيلة ، ثم ذكره بحادثة جرت لهما ـ الزبير وعلي ـ مع رسول الله ﷺ .

ـ والرواية نفسها موجودة في كتاب وقعة الجمل للغلابي؛ وقد أشرنا الى ذلك .

قال علي : تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ وهو متكىء على يدك فسلم عليّ ﷺ وضحك إليّ ثم التفت اليك فقال لك : يا زبير انك تقاتل علياً وأنت له ظالم .

فقال الزبير : اللهم نعم

فقال علي : فعلام تقاتلني .

قال الزبير : نسيتها ، والله لو ذكرتها ما خرجت اليك ولا قاتلتك .[1] . . . وانتفض الجمع . . وعاد الزبير أدراجه وهو عازم على العودة الى المدينة ، فتصدىٰ له ولده عبدالله ومنعه . . الخ ،[2] لكن الزبير قرر في النهاية العودة الى المدينة والكف عن القتال وفاءً لما جرى بينه وبين الإمام علي من شروط .

والرواية هنا تأتي بشكل آخر في كتاب أسد الغابة كما يلي :

« وشهد الزبير الجمل مقاتلاً فناداه علي ، فانفرد به ، وقال له : أتذكر أذ كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ فنظر إليّ وضحك وضحكت فقلت أنت لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال ﷺ ولتقاتلنه وأنت له ظالم ، فذكر الزبير ذلك وانصرف عن القتال . . .[3]

---

(١) وقعة الجمل ـ للغلابي ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٢) الزبير بن العوام ـ سلسلة الابطال ـ ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٣) أسد الغابة ج ٢ ص ١٩٩ .

وهناك مصادر أخرى تقول أنه لما التقيا مع بعض تعانقا ثم تحاورا فكان من جملة ما دار كلامهما تذكير علي الزبير بالحديث الذي مر ذكره : وبعد ذلك انصرف الإمام علي الى أصحابه وهو يحمل اليهم البشرىٰ بإعتزال أحد اكبر قادة جيشهم من المعركة وهو الزبير بن العوام ، فقال لهم : « أما الزبير فقد أعطىٰ عهداً أن لا يقاتلكم » . ورجع الزبير الى عائشة فقال لها : « ما كنت في موطن منذ عقلت وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا . » ثم ذكر لهم عن عزمه بالخروج من المعركة وانسحابه منها وذهابه الى المدينة لكن ابنه عبدالله أخذ يلح عليه في البقاء والثبات متهماً إياه بالخوف والجبن ، من روايات ابن أبي طالب ، ولأجل ان يدفع الزبير تهمة الجبن عن نفسه . . « انصل اسنان رمحه وحمل على عسكر علي برمحٍ لا سنان له ، فقال علي : أفرجوا له ، فانه محرج ثم حمل ثانية ثم ثالثة ثم قال لابنه :

أجبناً ؟ ويلك ترىٰ ؟ فقال : لقد أعذرت فأنشد الزبير اثر ذلك وكان شاعراً :

نادىٰ علي بـأمر لست أنكـره	وكان عمر أبيك الخير منذ حين
فقلت حسبك من عذلي أبا حسنٍ	فان بعض الذي قلت اليوم يكفيني
ترك الأمور التي تخشىٰ مغبتها	لله أمثل في الدنيا وفي الدين
فاخترت عاراً على نارٍ مؤججة	أنىٰ يقوم لها خلق من الطين[1]

وخرج الزبير بعد ذلك من ساحة المعركة ، وأخذ يسير مسرعاً باتجاه المدينة ، فنزل بوادي السباع ، وقام يصلي ، فأتاه بن جرموز ، وكان يتبعه ، فقتله ، وجـاء بسيفـه الـى علي ، فقال علي رضي الله عنه : « ان هذا سيف طالما فرَّج الكرب عن رسول الله » ثم قال علي قول ﷺ الى ابن جرموز « بشر قاتل ابن صفية بالنار »[2] .

(١) حرب الجمل للسيد محسن العاملي ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٢) أسد الغابة ج ٢ ص ١٩٩ .

وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى من سنة ٣٦ هـ (ست وثلاثين للهجرة) - وقيل ان ابن جرموز استأذن على علي بن أبي طالب، فلم يأذن له، وقال للآذن بشره بالنار.

فأنشد بن جرموز قائلاً:

أتيت علياً برأس الزبير ارجو لديه الزلفة
فبشر بالنار إذ جئته فبئس البشارة والتحفة
وسيان عندي قتل الزبير وضرطة عنزة بذي الجحفة[1]

وقد تضايق الإمام علي بن أبي طالب جداً من قتل الزبير وتأسف وغضب وقال لأبن جرموز «واالله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً ولكن الحين ومصارع السوء» فقال بن جرموز: الجانزة يا أمير المؤمنين.. الخ»[2].

وقد تطرق أبو محمد بن عبدالله اليافعي اليمني المكي في كتابه مرآة الجنان وعبرة اليقظان فسجل بكلمة تلك الحادثة بدوره قائلاً:

«وقتل الزبير بن العوام القرشي الأسدي حواري النبي ﷺ وابن عمته صفية، وأول من سل سيفاً في سبيل الله تعالىٰ، الذي قال ﷺ في قاتله، بعض الأخبار، بشروا قاتل ابن صفية بالنار، فقتله ابن جرموز بوادي السباع بقرب البصرة منصرفاً تاركاً للقتال، طالباً للسلامة من الفتن وما يترتب عليها من الآفات والداء العضال، فلحقه الشيطان المذكور، وأوهمه انه له مسائر فأمنه ولم يشعر، انه غادر، فاستغفل الهزبر الذي كان يكسر العساكر فقتله، بُعداً منه، وأخذ سيفه ذلك التعيس الفاجر، ثم جاء الى علي بسيفه ليبشره بزعمه بذلك، فبشره عليّ بالنار التي بشر بها النبي ﷺ، قاتله الخاسر الشقي، فقال له التعيس عندها بطريق الحجاج لا التندم، يا ويلنا ان قاتلناكم ويا ويلنا إن

(١) أسد الغابة ج ٢ ص ١٩٩.
(٢) حرب الجمل للسيد محسن العاملي ص ٤٠.

قاتلنا معكم ، فنحن في النار »[1] .

« وذكر بعضهم انه لما نظر علي ، سيف الزبير معه ، قال بعدما بشره بالنار ، طالما فرج الكرب عن رسول الله ﷺ . فقال : انا لله وانا اليه راجعون ، إن قاتلناكم فنحن في النار وإن قاتلنا لكم أو قال معكم فنحن في النار ، فقال له علي : ويلك ذلك شيء سبق لابن صفية . فقال : والله ما قتلته إلا لهواك ثم ولىٰ مغضباً »[2] .

ومن الاحتمالات التقديرية والمستنتجة من الروايات التاريخية التي تأتي بصيغ مختلفة ومتناقضة أحياناً ، للخبر الواحد : (ان ابن جرموز بعد أن قتل الزبير ، وسلبه سلاحه وخاتمه .. هال عليه سوء المصير ، فانهزم ولحق بالخوارج ، ثم خرج من خرج معهم على الإمام علي عليه السلام ، وحين خرج الإمام علي اليهم ليقضي على فتنهم، كان ابن جرموز ممن قتل)[3] على يديه الشريفتين .

ومن اتحف ما قاله الزبير وهو في خضم تصاعد المناوشات الحربية في واقعة الجمل :

ولقد علمت لوان علمي نافع ان الحياة من الممات قريبُ[4] .

وكما تأسف الامام علي وتأثر لقتل الزبير كذلك تألم من قتل طلحة بن عبيد الله . . . جاء في وقعة الجمل في هذا الصـــدد : وبعد انتهاء المعركة ، أخذ يتفقد القتلى أو بنص الرواية . . « فلما كان الليل طاف في القتلىٰ ، فمر على طلحة وهو مقتول فبكىٰ ، ثم قال : أعزز عليّ والله أبا محمد أن تكون

---

(١) مرآة الجنان ج ١ ص ٩٧ـ ٩٨ .
(٢) مرآة الجنان ج ١ ص ٩٨ .
(٣) حرب الجمل ، العاملي ص ٤٠ .
(٤) تاريخ الملوك ، الطبري ص ٣٥٢ ج ٢ .

قريش قتلىٰ تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية ، هذا والله كما قال الشاعر : ـ

فتىً كان يدنيه الغنىٰ من صديقه   إذا ما هو استغنىٰ ويبعده الفقر
كـأن الثريـا علقت في جبينه   وفي خده الشعرى وفي وجهه البدر[1]

ويموت الزبير انخسف شمس من شموس الإسلام الوهاجة ، وانطفأت نور من أنواره البهية ، وانهار ركن من اركانه الصلبة ، فالبيت اذا انجرف منه ركن فان ذلك يؤدي الى انهدام البقية الباقية من اركانه الأخرىٰ .

وهكذا فان استشهاد الزبير وطلحة وبعدهما بفترة ، الخليفة علي علىٰ يد الخوارج (الذين اخلصوا له في معركة الجمل وخذلوه في صفـين) ، كان لأسباب جامعة وعوامل مختلفة ، التقت ثم أدت الى هذه الكوارث المفزعة والخسائر المحزنة والأهوال المجحفة والآلام العميقة .

أليس من العجب العجاب ، بل ما يؤلم الفؤاد ، ان يكون مصير المؤسسين الأوائل للإسلام عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير . . القتل والغدر . ! .

قالت زوجة الزبير عاتكة ترثي زوجها ورفيق حياتها شاكية باكية[2] :

إنَّ الـزبير لـذو بـلاء صـادق   سمـح سجيته كـريم المشهـد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه   عنها طردُك يا ابن فقع الفرقد
فاذهب فما ظفرت يداك بمثله   فيما مضىٰ ممن يروح ويغتدي

---

(١) وقعة الجمل ـ الغلابي البصري ص ٤٧ .
(٢) الزبير بن العوام ـ سلسلة الابطال . ص ٢٤ .

جوانب من حياة الزبير بن العوام

● وصف الزبير

جاء وصف الزبير بعدة أشكال وبروايات مختلفة من مصادر شتىٰ هي على التوالي :

أ ـ كان ، ابيض ، حسن القامة ، ليس بالطويل ، قليل شعر اللحية ، أهلب ، كثير شعر الجسد(١) .

ب ـ وكان تخط رجلاه الأرض اذا ركب(٢) .

جـ ـ اسمر ، ربعة ، معتدل اللحم ، خفيف اللحية(٣) .

ويبدو التناقض واضحاً بين روايات المؤرخين ، لكنه بالمقابل ترىٰ وضوح الاتفاق الذي يكاد يكون متقارباً يشتركون فيه في وصف الزبير في احيان أخرىٰ وبصورة عامة . . ويمكننا ان نستنتج من هذه الروايات ما نراه متطابقاً للصورة التاريخية الكاملة للزبير أو الصورة الوصفية الحقيقية له إذ سمحنا لانفسنا الكلام ، فهو كما يتراءى لنا بالإعتماد على منقولات المؤرخين :

أنه كان طويلاً ولكن لا كالعملاق ولونه بين الأسمر والابيض ، ضعيف شعر اللحية ، كثير شعر الجسد ، معتدل اللحم ، أهلب ، ربعة ، وأني أقر على أكمل وصف جاء له عن التاريخ والذي هو القرار النهائي ، الذي لا

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص ٦٤ .
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٢٦ .
(٣) أسد الغابة ص ١٩٩ .

يتسرب اليه الشك وذلك بموجب ما ورد عن اسماء بنت أبي بكر قائلة عن وصف زوجها الزبير بن العوام ، وهي أقرب الناس إليه « وكان الزبير بن العوام رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير ، الى الخفة ما هو في اللحم ، أسمر اللون ، أشعر ، رحمه الله »[1] .

زوجاته وأولاده

وكان للزبير احد عشر ذكراً وتسع نسوة [بنات] ، عبدالله وعروة والمنذر وعاصم وعامر والمهاجر دَرَجا وخديجة الكبرىٰ وأم الحسن وعائشة وأمهم اسماء بنت أبي بكر الصديق .

ومصعب وحمزة ورملة وأمهم الرباب بنت أنيف بن عُبيد بن حصاد بن كعب بن عُليم بن خباب من كلب . وعبيد وجعفر وأمهما زينب وهي أم جعفر بنت مرثد بن عمر بن سعد بن مالك بن خيّعة بن قيس بن ثعلبة .[1]

وزينب أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط ، وخديجة الصُغرىٰ وأمها الحلال بنت قيس بن نوفل بن جابر بن شجفة بن أسامة بن مالك بن نصر ابن قُعين من بني أسد » .

وبالمناسبة عن ذكر اولاده جاء « عن هشام بن عروة عن أبيه ، قال ، قال الزبير بن العوام :

« إن طلحة بن عبيد الله يسمي بنيه بأسماء الأنبياء ، وقد علم انه لا نبي بعد محمد ، واني اسمي بني باسماء الشهداء لعلهم ان يستشهدوا .

(١) الطبقات لأبن سعد م ص ١٠٧ .
(٢) الطبقات لابن سعد م ٣ ص ١٠٠ .
(٣) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٠ .
(٤) الطبقات لابن سعد م ٣ ص ١٠٠ كذلك .
(٥) الطبقات لابن سعد م ٣ ص ١٠٠ كذلك .
(٦) الطبقات لابن سعد م ٣ ص ١٠١ .

فسمى عبدالله بعبدالله بن جحش
والمنذر بمنذر بن عمرو
وعروة بعروة بن مسعود .
وحمزة بحمزة بن عبد المطلب
وجعفر بجعفر بن أبي طالب
ومصعباً بمصعب بن الحارث
وخالداً بخالد بن سعد
وعمرواً ، بعمرو سعيد بن العاص ، قتل يوم اليرموك »[1] .

إخوة الزبير وأخبارهم في التاريخ

في تسمية من استشهد يوم اليمامة ، ورد اسم « السائب بن العوام بن خويلد أخو الزبير »[2] ، وجاء عنه في موضوع خبر اليمامة « عن هشام عن عروة عن أبيه قال : جال المسلمون حتى بلغوا الرمال ، فقال السائب بن العوام : يا أيها الناس قد بلغتم الرمال فليس لأحد مقر بعد رحله فارجعوا ، فرجعوا فهزم الله المشركين وقتل مسيلمة »[3] وللزبير أخ آخر واسمه كما ورد في كتاب ذخائر العقبة ، عبد الكعبة .[4] اضافة الى السائب .

سياسته مع نسائه

نستشف من الروايات التاريخية ان الزبير بن العوام كان ينفق بسخاء على كساء نسائه ويرضيهن بذلك ، قال أبن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) :

قال رسول سلمة بن قيس الاشجعي الى الخليفة عمر بن الخطاب رضي

---

(١) الطبقات لابن سعد م ٣ ص ١٠١ كذلك .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٩٢ .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٨٧ .
(٤) ذخائر العقبىٰ ، أخبار صفية ص ٢٥٢ .

الله عنه ، بعد أن انتهىٰ سلمة بن قيس من قتال المشركين في شمال العراق وفارس ، بعثني الي الخليفة عمر مبشراً بالنصر وحاملاً للغنائم ، فاستأذنت للدخول عليه ولم أعلم حاجبه من أنا فأذن لي . فوجدته في صفة ، جالساً على مسح ، متكئاً على وسادتين من ادم ، محشوتين ليفاً ، وعليه ستر من صوف فنبذ إلي احدىٰ الوسادتين فجلست عليها . ولما أخذت مجلسي نادىٰ : يا أم كلثوم . . . الا تغدوننا ؟ فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق ، ثم نادىٰ : يا ام كلثوم ، الا تخرجين الينا تأكلين معنا؟ فقالت : اني اسمع عندك حس رجل . قال : نعم . . ولا أراه من أهل هذا البلد . فقالت لو اردت ان أخرج الى الرجال لكسوتني كما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته .

قال : اوما يكفيك انك ام كلثوم ابنة علي بن أبي طالب ، وزوج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وجاء في المحاسـن والأضداد للجاحظ عن موضوع نساء الخلفاء حديثاً نقتطع منه ما يفي بغرضنا ويخص حاجتنا اليه ، فقد قال : « وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يؤدبون نساءهـم ويضربوهن ، . . هذا الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته ، وثب على امرأته اسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه وهي أفضل نساء أهل زمانها ، فضربها في شيء ـ عتب عليها فيه ـ ضرباً مبرحاً ، حتى كسر يدها ، وكان ذلك سبب فراقها ، وذلك أنها استغاثت بولدها عبدالله ، فجاء يخلصها من أبيه ، فقال : هي طالق ان حلت بيني وبينها ، ففعل وبانت منه »[1] .

وجاء في مجلة التربية الإسلامية الصادرة في بغداد[2] « ومن زوجاته ـ يعني

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٣٩ ـ بيروت ، ١٩٦٠ تحقيق فوزي عطوي .

(٢) مجلة التربية الاسلامية/ العدد السادس/ السنة الثالثة عشرة حرم الحرام ١٣٩٠ هـ/٢٧ شباط ١٩٧١ راجع ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

الزبير بن العوام - أم كلثوم بنت عقبة بن أبان بن أمية بن عبد شمس ، من المهاجرات ، أموية ، عبشمية ، وفيها نزل قوله تعالىٰ ﴿ فامتحنوهن الله أعلم بأيمانهن ﴾ تزوجها زيد بن حارثة حب رسول الله ومولاه وقتل عنها يوم مؤتة ، فتزوجها من بعده الزبير بن العوام ، فولدت له زينب ، وكان في الزبير شدة في النساء ، فكرهت أم كلثوم العيش معه لشدته ، وكانت تسأله الطلاق ، فيأبىٰ عليها ذلك ، ثم استجاب لطلبها وطلقها ، ثم تزوجت عبد الرحمن بن عوف ، فولدت له ابراهيم وحميداً ، ومات عنها عبد الرحمن بن عوف فتزوجها عمرو بن العاص فماتت عنده رضي الله عنه وعنهم أجمعين » .

ان الروايتين السابقتين تعطينا انطباعاً عن شدة الزبير بن العوام مع نسائه ، وقد لوحظت عليه هذه الشدة من بداية زواجه بزوجته الأولىٰ من اسماء بنت أبي بكر الصديق ، ولعل القارىء الكريم قد قرأ ذلك ، في موضوع الزبير في عهد أبي بكر الصديق ، كيف ان اسماء شكت الى أبيها ، وكيف ان أبا بكر كان يحثها على الصبر والطاعة الزوجية والتحمل .

الزبير وأطفاله

عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قـال : « ربما أخذت بالشعر على منكبي الزبير وأنا غلام فاتعلق به على ظهره »(١) .

وورد - أيضاً - عن الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ انه رقص ابنه عبدالله شعراً منوهاً فيه بشرف اتصال مجده من أمه اسماء بنت أبي بكر الصديق قائلاً :

أزهر من آل أبي عتيق
مبارك من ولد الصديق
ألـزه كـما ألـز الـصـديـق(٢)

(١) الطبقات لأبن سعد م ٣ ص ١٠٧ .
(٢) اشعار الترقيص عند العرب ص ٥ ، ٢٦ . سعيد الديوه جي . طبع وزارة الإرشاد ، سلسلة الفنون الشعبية - الطبع بدون تاريخ .

ذرية الزبير في ذمة التاريخ

كان الزبير كثير النسل وذلك بسبب كثرة أزواجه ، ويذكرنا التاريخ ، بقتل عدد من ابناء وأحفاد الزبير ؛ فكما اشتهر أبوهم الزبير بالشجاعة والجرأة كذلك اشتهر ابناؤه بهذه الصفة العربية الأصيلة ، وكانوا لا يأبون إلا القتل او القتال ، يقول الجاحظ :

« ولم يظهر من عدد القتلىٰ مثل الذي ظهر في آل أبي طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب » .

وقال الشاعر في آل الزبير :

آل الزبير بنو حرة　　مروا بالسيوفِ صدوراً خناقا
يمـوتـون والقتـل من دأبهم　　ويغشـون يـوم البلق السبـاقـا
اذا خرج القتل عن عيصهم　　أبى ذلك العيص إلا اتفاقا[1]

وعلى الرغم من تعرض كثير من آل الزبير للقتل إلا أن ذريته تكاثرت وانتشرت فيما بعد ، فكان يوجد منهم في الحجاز وخاصة في المدينة ، كما سكن بعضهم في بغداد ، في عهد الخلافة العباسية ، ويظهر أنهم انتشروا بصورة أوسع في القطر المصري اعتماداًعلى المؤرخ المقريزي مؤلف كتاب البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، وعلى الدراسة التي أعدها محقق الكتاب الدكتور عبد المجيد عابدين .

يقول المقريزي في هذا الصدد :

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢٩ .

« وأما بنو الزبير منهم من ولد عبدالله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وهم بنو بدر ، وبنو مصلح ، وبنو رمضان ، ومنهم بنو مصعب بن الزبير رحمه الله تعالىٰ ، ويعرفون بجماعة محمد بن رواق ، ومنهم بنو عروة رحمه الله وهم بنو عتى وبلادهم بالبهنسا وما يليها . وصار اكثرهم صاحب معايش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع »[1] .

وقد قام المحقق الفاضل الدكتور عبد المجيد عابدين بمتابعة الموضوع من مظانه وإثباته من الناحيتين التاريخية والجغرافية ، فاستطاع ان يتوسع في متابعة آل الزبير وذريته والمناطق التي سكنوها في القطر المصري على مدىٰ العصور والأزمان ، وقد وضع الدراسة في الهامش من فقرات المؤرخ المقريزي المحققة ، معززاً آراءه بالمصادر ينقل منها ، ونرىٰ من الأمانة العلمية تثبتها للاستفادة منها في الموضوع فأعقب بما يلي :

بنو بدر : مساكنهم بلاد الاشمونيين (عن النهاية ١٧٤)[2] وبنو مصلح : مساكنهم البهنساوية : وهذه العبارة حتى قوله . . وماشية وضرع من كلام الحمداني (عن النهاية ايضاً : ١٣٨) قلت ، وهناك جزيرة تعرف بالرمضانية في البلاد البهنساوية ورد ذكرها في التحفة ، وقال في تاج العروس (القاموس ١ : ٤٠) وممن ينتسبون الى الزبير بن العوام من القبائل الحالية العبابدة (انظر: مري في المجمع المصري ٢ : ١٩٦) والكواحلة بالسودان على النيلين الأبيض والأزرق ، وفي الجزرة بينهما في جهتي عبود وود مدني ومنهم بادية يسكنون غربي الرهد مع الحمدة ومن فروعهم الحسنات والشنابلة ، (نعوم

(١) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، احمد بن علي المقريزي مع دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل . ص ٤١ ـ ٤٢ تحقيق وتأليف الدكتور عبد المجيد عابدين/ الطبعة الأولى ١٩٦١ .

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي طبع في ١٩٥٩/ القاهرة .

شعير : تاريخ السودان ١ : ٥٦)[١] ، وقال مؤلف القاموس الجغرافي[٢] : دلني البحث على انه كان في إقليم الغربية بلدة قديمة تسمى الزبيرية ، نسبة إلى أنصار ابن الزبير ، الذين كانوا مقيمين في الفسطاط ، وأخرجهم منها الخليفة مروان بن الحكم (٦٥ هـ) وأنزلهم بالغربية . وفي القرن الحادي عشر الهجري طغا الماء على مساكن قرية الزبيرية فأكلها واندثرت فاظطر أهلها ان ينشئوا مساكن جديدة في أراضي الزبيرية بدل القرية المندثرة وقد انشأوا ثلاثة كفور وهي كفر حشاد وكفر الهواشم وفي تاريخ ١٢٢٨ فصلت الثلاثة الكفور المذكورة ، عن بعضها ، وقيد لكل كفر منها زمام خاص ضمن نواحي ولاية الشرقية ، وقال صاحي القاموس الجغرافي ايضاً : أن الزبيرية وردت في قوانين ابن مماتي ، وفي تحفة الإرشاد ، انها من أعمال جزيرة بني نصر ، والزبيرية ايضاً من البلاد المندرسة وردت في التحفة بانها من الكفور الشاسعة ، من حوف رمسيس (١ : ٦٥) وفي مركز شبين الكوم بالمنوفية قرية الشهدا ـ مقابر الشهدا في معجم البلدان ـ موضع حدثت فيه حروب بين مروان والزبيرية ، من أهل مصر (٦٥ هـ) وقتل من الفريقين عدد عظيم ، والمعروف ان ابن الزبير حين دعا لنفسه بالخلافة ، ارسل الى مصر عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم والياً عليها فوصلها في شعبان (٦٤ هـ) مع جمع كبير من أنصار ابن الزبير ، وإنتهت المعارك بينه وبين مروان ، بانتصار مروان ودخوله الفسطاط (جمادى الأولى ٦٥ هـ) (انظر القاموس ٢ ـ ٢ : ١٨٥)[٣] .

والغريب في الأمر ، ان الأستاذ عبدالله خورشيد البري تناول الموضوع ، أي المتابعة التاريخية لذرية الزبير في الديار المصرية ، في

(١) تاريخ السودان القديم والحديث دار المعارف بالقاهرة ثلاثة أجزاء .
(٢) القاموس الجغرافي للبلاد المصرية القاهرة [١٩٥٣ـ ١٩٥٨] .
(٣) البيان والأعراب عما بأرض مصر من الاعراب / الهامش ص ٤١ ـ ٤٢ ، دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل ـ للمحقق الاستاذ الدكتور عبد المجيد عابدين .

كتابه « القبائل العربية في مصر ، في القرون الثلاثة الأولى للهجرة » ، لكنه استغمض بل وشك في النهاية ، عن وجود الزبيريين في مصر ، دون أن يعزز رأيه بالشواهد التاريخية والجغرافية :

ففي موضوع بـني أسد بن عبد العزىٰ قـال : « هم رهط خديجة زوج النبي ، والزبير بن العوام . . . ونرىٰ منْهم بمصر ، الزبير بن العوام نفسه في معارك الفتح قائداً للمدد سنة ١٩ هـ . واليه يرجع الفضل في الإستيلاء على حصن بابليون . وقد اختط بمصر داراً وهبها فيما بعد لمواليه واختط غيرها . وقد صادر المروانيون هذه الدار من بني الزبير بن العوام ثم ردها ابو جعفر المنصور عليهم . وفي رواية ان عبدالله بن الزبير كان يأتي الى مصر وينزل هذه الدار »[1] .

ثم يقول الاستاذ عبدالله خورشيد البري :

« من الحق ان الزبيريين هم الذين مثلوا بني أسد بن عبد العزىٰ في مصر تمثيلاً فعلياً ، وما مر من سيرة الزبير يعطينا الحق في ان نفترض إقامة بعض بنيه في مصر إقامة مستمرة منذ الفتح ، ولكن القلقشندي والمقريزي يذكران ، ان بمصر ، جماعة من الزبيريين . من بني عبدالله بن الزبير وبني أخيه عروة ، يقيمون بالصعيد في البهنسا والأشمونـيين ، وقد تحول اكثرهم ـ على عهدهما طبعاً ـ أي القرن التاسع ـ الى فلاحين محكومين . ولكن هذا لا يمنعنا من ان نلاحظ ان عبدالله بن الزبير بالرغم من انه شهد فتح مصر وكان مع ابن أبي سرح في غزوة أفريقية سنة ٢٧ هـ . فانه انتقل الى الحجاز بعد ذلك . وانغمس في الصراع الحزبي ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وقاد صراعاً مريراً ضد المروانيين انتهى بقتله سنة ٧٣ هـ . ولم يكن له علاقة بمصر في خلال ذلك كله ، إلا استيلاءه قصير العمر عليها بوساطة قائده ابن جحدم (٦٤ ـ ٦٥ هـ) . وان كانت الرواية تدل على انه

(١) القبائل العربية في مصر ص ٨٤ .

كان معروفاً للمصريين ومحبوباً منهم ، أما أخوه عروة (ت ٩٤ هـ) فهو من أهل المدينة وفقهائها الأكابر . . . وهنا نصطدم بالسؤال نفسه الذي قابلناه في البطون السابقة وهو : متى قدم هؤلاء الزبيريون ـ أي بنو عبدالله وبنو عروة ـ الى مصر وأقاموا بصعيدها ؟ »[١] .

ولا أدري كيف سوغ الاستاذ عبدالله فكري لنفسه التساؤ ل والإستغراب عن قدوم الزبيريين الأوائل وأحفادهم الى مصر والإستقرار فيها والتكاثر في قراها ومدنها ، بل والأكثر من ذلك انه شك حتى في أقوال كتب المؤرخين كالمقريزي والقلقشندي دون ان يسوق عباراته بالشواهد والبراهين المقنعة ، مع العلم ان الزبير بن العوام كان كثير الأولاد والأحفاد ، وكان هؤلاء لا يمنعهم من التوجه إلى مصر ، البلد الذي زرع فيه أبوهم الأول الزبير بن العوام أمجاد الفتح العربي ، حيث كان من أعظم قواد الفتح فيه ، إذ ارسله الخليفة عمر بن الخطاب على رأس جيش المدد الى عمرو بن العاص ، وتقلب بجيشه في مصر وفتح كثيراً من مناطقها .

فهذه المفخرة التاريخية ، وما كان للزبير من أملاك ودور وخطط وغيرها ، بالإضافة الى العوامل السياسية والإقتصادية . . . كان الزبيريون ، يحبون الإستقرار في مصر والهجرة اليها ويتكاثرون فيها ، ويعتقد انهم كانوا من أحفاد الزبير بالدرجة الأولىٰ .

شعره

كان الزبير بن العوام يرتجل الشعر ، ولقد وردتنا عنه ، في الكتب والمصادر أشعار قليلة ، ويمتاز شعره بالفصاحة والعبارات السليمة . . . ومن شعره رضي الله عنه[٢] :

---

(١) القبائل العربية في مصر ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) الفرج بعد الشدة للقاضي ابي علي المحسن بن أبي القاسم المتوفى ٣٢٧ ـ ٣٨٤ هـ ـ ط ١ ١٩٥٥ ، دار الطباعة المحمدية ـ مصر .

لا أحسب الشر جاراً لا يفارقني ولا أحزّ على ما فاتني الودجا
ولا لقيت من المكروه نازلـة الا وثقت بان القى لها فرجا
ولا تراني لما قد فات مكتئباً ولا تـراني بما قد نلتُ مبتهجـا

ويمكننا ان نلاحظ انه حصر في هذه الأبيات خلاصة فلسفته في الحياة .

شجاعته

كان الزبير بن العوام شجاعاً منذ نشأته ، وكان « احد الأبطال المشاهير في الجزيرة العربية »(١) وقد اعتبره الإمام علي من أشجع الناس(٢) .

وجاء في كتاب لمستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد أحمد ابي الفتح المحلي (٧٩٠ هـ . ٨٥٠ هـ) (في جزئين) ، في الباب الحادي والأربعين في ذكر اسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الحسناء وأخبارهم وذم الجبن قال : « الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله ﷺ ، وابن عمته ، بطل شجاع لا يُمارىٰ وشهم لا يحاول »(٣) .

كل هذه الاستشهادات كافية على شجاعته ، وبطولته والأمثلة عليها كثيرة ، ولقد مر اكثرها حين استعراضنا لتسلسل حياته ، والآن نأخذ نموذجاً رائعاً من شجاعته الفذة ، وذلك استناداً الى ما أخرجه ابن جرير عن اسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت :

« أقبل رجل من المشركين وعليه السلاح ، حتىٰ صعد على مكانٍ مرتفع من الأرض ، فقال من يبارز ؟

فقال رسول الله ﷺ لرجلٍ أتقوم إليه ؟

---

(١) التاريخ الإسلامي أحمد شلبي ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٢) الاخبار والأغاني ابن منظور ج ٨ ص ٢٧٧ .
(٣) المستطرف في كل فن مستظرف ج ١ ص ٢٢٢ .

فقال : ان شئت يا رسول الله -ﷺ- فقال ﷺ : - قم يا ابن صفية !

فانطلق - الزبير - اليه حتى استوىٰ معه فاضطربا ثم عانق احدهما الآخر ثم تدحرجا .

فقال رسول اللهﷺ : أيهما وقع الحضيض ، أول ، فهو مقتول !

فدعا النبي ﷺ ودعا الناس فوقع الكافر ووقع الزبير - رضي الله عنه - على صدره فقتله كذا في منتخب الكنز ج ٥ ص ٦٩ »[1] .

ومما أريد أن أقرره في موضوع شجاعة الزبير بن العوام انه لم يعرف للجبن معنىً قط ، ولم يهزم في معركة أو غزو او موقف يتطلب المبارزة الفردية ، وقد لازمته شجاعته في جميع مواقفه والتي آخرها - حرب الجمل - اذ انه عندما خرج لم يخرج عن خوف ولا عن جبن وإنما انسحب لانه وجد انه لم يضع في هذ الحالة شجاعته في محلها اللائق بها ، وذلك لأنه ممن جعل شجاعته وقفاً لله ولرسوله ولدينه ، وهذه الرواية تؤكد ما نذهب إليه إذ جاء في كتاب حياة الصحابة : « وأخرج أبو نعيم أيضاً عن حنف بن خالد ، قال حدثني شيخ قدم علينا من الموصل ، قال : صحبت الزبير بن العوام في بعض اسفاره ، فأصابته خبابة بأرض قفر ، فقال استرني ، فسترته ، فحانت مني اليه التفاتة فرأيته مجدعاً، قلت: والله لقد رأيت بك آثاراً ما رأيتها بأحد قط!

قال : وقد رأيت ذلك ؟

قلت : نعم !

قـال : أما والله ، ما منها جراحة الا مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله »[2] .

---

(١) حياة الصحابة ج ١ (شجاعة الزبير ص ٥٦٦ .

(٢) حياة الصحابة . ج ١ ص ٢٨٣ .

ولما كانت شجاعته مجندة لله ولرسوله ، لذلك نراه يندم لاشتراكه في حرب الجمل حيث القتال بين المسلمين ويقول بعد ان قرر الإنسحاب : « ما كنت في موطن منذ عقلت وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا »[1] .

---

(١) كتاب حرب الجمل ـ السيد العاملي ص ٣٨ .

كرمه وإنصافه

كان للزبير ألف مملوك يؤدون اليه الخراج ، فما يدخل بيته منها درهمٌ ، يعني انه كان يتصدق بذلك كله[1] .

فلسفته في التجارة

وكان الزبير تاجراً مجدوداً في التجارة ، وقيل له :

بم أدركت في التجارة ما أدركت ؟

فقال : لأني لم اشترِ غبناً ولم أرد ربحاً والله يبارك لمن يشاء[2] .

أمانته وثقة الصحابة به

ـ وذلك ـ انه اوصىٰ اليه عثمان ومقداد وابن مسعود وابن عوف وغيرهم فكان يحفظ أموالهم وينفق على أولادهم[3] .

وجاء في إحدى الروايات عن يعقوب بن سفيان عن مطيع بن الأسود ، انه أوصىٰ الى الزبير فأبىٰ فقال : أسألك بالله وبالرحم إلا ما قبلت فاني سمعت عمر يقول : « أن الزبير ركن من اركان الدين »[4] .

ولم يقتصر ترخيص الصحابة للزبير في الوكالة على الأولاد والأموال فقط ، وإنما سُمح له من قبل بعضهم في تزويج نسائهم كما ينقل لنا ذلك

---

(١) الاستيعاب ص ٥٦٣ .

(٢) الاستيعاب ص ٥٦٣ كذلك .

(٣) الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٢٧ .

(٤) الإصابة في تمييز ج ١ ص ٥٢٧ كذلك .

الطبــري : تزوج علي بن أبي طالب بعد فاطمة بإمامة بنت أبي العاص من زينب بنت رسول الله ﷺ ، « وقيل ان فاطمة كانت اوصته بذلك ، ذكره الدارقطني . وزوجها منه الزبير بن العوام ، وكان أبوها ، أوصى بها اليه ، فولدت له محمداً ، وقيل قتل عنها فلم تلد له »[1] .

ومما أوصىٰ به عبدالله بن مسعود وذلك : « إن حدث به حدث في مرضه هذا ، ان مرجع وصيته الى الله والى الزبير بن العوام وابنه عبدالله بن الزبير أنهما في حلٍّ وبلٍّ مما وليّا وقضيا وانه لا تُزوج أمرأة من بنات عبدالله الا بأذنهما ، لا تحظر عن ذلك زينب »[2] .

علاقة الزبير بأسباب نزول بعض الآيات القرآنية

ورد في كتاب ـ لباب النقول في أسباب النزول ـ للحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١ هـ في كتابه المذكور : ﴿ قوله تعالىٰ : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك . . الخ ﴾ . قال السيوطي : أخرج الأئمة الستة عن عبدالله بن الزبير قال : خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شراج الحرة ، فقال النبي ﷺ : اسقِ يا زبير ثم ارسل الماء الى جارك . فقال الأنصاري : يا رسول الله ، ان كان ابن عمتك ، فتلون وجهه ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتىٰ يرجع الى الجدار ، ثم ارسل الماء الى جارك ، واستوعب الزبير حقه . وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات الا نزلت في ذلك ـ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم .

وأخرج الطبراني في الكبير والحميدي في مسنده عن أم سدمة قالت : ـ خاصم الزبير رجلاً الى رسول الله ﷺ ، فقضىٰ للزبير ، فقال الرجل : إنما قضى له لأنه ابن عمته ، فنزلت : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك ـ الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله ـ فلا وربك ـ

(١) ذخائر العقبىٰ ـ الطبري ص ١٦١ .
(٢) الطبقات لابن سعد م ٣ ص ١٥٩ .

الآية . قال نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة اختصما في ماء فقضى النبي ﷺ ان يسقى الأعلى ثم الأسفل(١) .

وجاء في المصدر المذكور نفسه كذلك في سبب نزول الآية قوله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله ورسوله ـ الآية ﴾ أخرج ابن جرير عن طريق العوقي عن ابن عباس قال : ان الله قذف الرعب في قلب أبي سفيان يوم أحد بعد الذي كان فرجع الى مكة ، فقال النبي ﷺ : ان أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب . وكانت وقعة أحد في شوال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرىٰ ، وانهم قدموا بعد وقعة أحد وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك . فندب النبي ﷺ لينطلقوا معه . فجاء الشيطان فخوف أولياءه فقال : ان الناس قد جمعوا لكم فأبىٰ عليه الناس أن يتبعوه . فقال : اني ذاهب وان لم يتبعني أحد . فانتدب معه ابو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً فساروا في طلب أبي سفيان فطلبوه حتى بلغوا الصفراء . فأنزل الله ـ الذين استجابوا لله ورسوله ـ الآية(٢) .

الزبير والكتابة

كان الزبير احياناً يكتب للرسول ﷺ ، وقد جاء في موضوع الكتاب والكتابة في كتاب عيون الأخبار ـ قسم السلطان ، لابن قتيبة لخبراً مفاده : « حدثني ابو سهل عن الطنافسي عن المنكدر بن محمد عن ابيه محمد بن المنكدر قال : جاء الزبير بن العوام الى النبي ﷺ فقال : كيف أصبحت ؟ جعلني الله فداك ! قال : « ما تركتَ أَعْرابيتَّك بعد »(٣) .

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول/ السيوطي/ مكتبة الرياض الحديثة الطبع بلا تاريخ .
(٢) لباب النقول في أسباب النزول ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٣) عيون الأخبار ـ جزء السلطان ص ٧٨ في موضوع الكتاب والكتابة ـ طبع بيروت ـ مطابع دار الكشاف . بلا تاريخ .

الرسول وحربة الزبير

جاء في الباب الحادي عشر من كتاب الوفا بأحوال المصطفىٰ في موضوع (في حمل الحربة بين يديه يوم العيد) : « كـــان النجاشي قد وهب للزبير بن العوام حربة ، فكانت تلك الحربة تُحمل بين يدي رسول الله ﷺ في الأعياد »[1] .

وقد لمع دور هذه الحربة في التاريخ أيضاً وذلك : « عن الزبير بن بكار قال : قتل أمية بن خلف ببدر ، وكان اخوه أبي بن خلف ، وقد أسر يومئذٍ ، فلما فدي ، قال لرسول الله ﷺ : إنَّ عندي فرساً أعلفه كل يومٍ فرقاً من ذرة أقتلك عليه ، فقال له رسول الله ﷺ « بل أنا أقتلك ان شاء الله » .

فلما كان يوم أحد وإنحاز المسلمون الى شعب أحد أبصر ابي بن خلف رسول الله ﷺ ، فحمل عليه فشد ، فحمل عليه الزبير بن العوام ومع الزبير الحربة ، فأخذها رسول الله ﷺ فطعنه بها في ترقوته ، فخر صريعاً ، فادركه المشركون ، فأرسوه (أقاموه) وله خوار فجعلوا يقولون : ما بك باس ، قال : أليس قاتلي من قال لي : أنا أقتلك . فحملوه حتى مات بِمُرِّ الظهران على أميال من مكة »[2] .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفىٰ ج ٢ ص ٥١٩ .
(٢) الوفا باحوال المصطفىٰ ج ٢ ص ٦٨٦ - ٦٨٧ .

النبي يسمي ابنه [ابن الزبير] عبدالله

ومن أخبار ما يتعلق بالزبير كذلك ، عن عائشة رضي الله عنها ان النبي ﷺ رأىٰ في بيت الزبير مصباحاً فقال يا عائشة ما أرىٰ اسماء الا قد نفست فلا تسموه حتىٰ اسميه ، فسماه النبي ﷺ عبدالله وحنكه بتمرة[1] .

الزبير يشيد بعلي

وذلك عن ابن خاقان قال: قال لي الاحنف بن قيس : لقيت الزبير ، فقلت له : ما تأمرني به وترضاه لي ؟

قال : آمرك بعلي بن أبي طالب .

قلت : أتأمرني به وترضاه لي ؟

قال : نعم ... أخرجه الحضري »[2] .

بين طلحة والزبير

جاء في عيون الأخبار في كتاب السلطان لابن قتيبة في موضوع الشهادات :

« قال المدائني : كان بين طلحة بن عبيد الله والزبير مدارأة ، في واد بالمدينة ، قال ، : فقالا : نجعل بيننا عمرو بن العاص ، فأتياه ، فقال لهما : انما في فضلكما وقديم سوابقكما ونعمة الله تختلفان ، وقد سمعتما من رسول الله ﷺ مثل ما سمعت وحضرتما من قوله مثل الذي حضرت فيمن اقتطع شبراً

(١) جامع الاصول في احاديث الرسول/ الشيخ علي منصور .
(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة . ج ٢ ص ٣٢٣ .

من أرض أخيه بغير حق أنه يُطوقه من سبع أرضين ! والحَكَم أحوج الى العدل من المحكوم عليه ، وذلك لأن الحكم إذا جار رُزىء دينه ، والمحكوم عليه إذا جير عليه رُزىء عَرض الدنيا ، [ان شئتما فادليا بحجتكما] وان شئتما فأصلحا ذات بينكما . فاصطلحا وأعطى كل واحدٍ منهما صاحبه الرضا »[1] .

الزبير حواري رسول الله

جاء في كتاب الاستيعاب قال النبي ﷺ « لكل نبي حواري وحواري الزبير »[2] وجاء أيضاً : « وقال محمد بن سلام سالت يونس بن حبيب عن قوله ﷺ « حواريّ الزبير » فقال : خلصانه[3] وقال غيره : الحواري الصاحب المستخلص »[4] .

وجاء في كتاب عائشة والسياسة لسعيد الأفغاني في هذا الصدد « الحواري : الناصر ، وهو لقب الزبير »[5] .

وقد اشتهر عنه هذا اللقب وانتشر بين الصحابة حتى نرى ابن عمر عندما سمع رجلاً « يقول أنا أبن الحواري ، قال : ان كنت ابن الزبير وإلا فلا »[6] .

ويتسع أبو اسحق محمد بن ابراهيم النيسابوري الثعلبي المتوفى ٤٢٧ هـ في كتابه المطبوع في مصر قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ـ بقوله : « قال الضحاك عن حواري عيسى عليه السلام سموا حواريين لصفاء قلوبهم ، وقال عبدالله بن المبارك ، سموا حواريين لأنهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة

---

(١) عيون الأخبار/ السلطان ص ١١٣ .
(٢) الاستيعاب ص ٥٦١ ج ٢ .
(٣) الاستيعاب ص ٥٦١ كذلك .
(٤) الاستيعاب ص ٥٦٣ ج ٢ .
(٥) عائشة والسياسة ص ٢٠٩ .
(٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٩٧ .

ونورها وبياضها وبهاؤها ، وأصل الحور شدة البياض ، ومنه الأحـــور ، والحور . وقال الحـسن : الحواريون : الأنصار ، وقال قتادة : هم الذين تصلح لهم الخلافة ، وقال النضير بن شميل : الحواري خاصة الرجـل ومن يستعين به فيما ينويه ، ومنه قوله ﷺ : « لكل نبي حواري وحواري الزبير » . ويستأنف المؤلف قوله : فهؤلاء حواريو عيسىٰ عليه السلام ، فأما حواريو هذه الأمة ، فأخبرنا الحسن بن محمد الدينوري بإسناد عن سفيان بن معمر ، ان قتادة قـال : ان الحواريين كلهم من قريش : وهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وجعفر وأبو عبيدة وعثمان بن مظعُون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم أجمعين »[1] .

ولكن بالرغم من ذلك فان جميع المصادر وأمهات الكتب الدينية والتاريخية ما عدا القرآن الكريم الذي لم يـرد فيه لفظاً تصريحياً عن عبارة الحواري ، (عن الزبير خاصة) . . . تؤكد على ان المشهور عن الزبير بن العوام انه المقصود بلقب حواري الرسول ، وقد أطلعنا وتأكد لدينا على ان الرسول ﷺ وأصحابه وخلفاءه من بعده كانوا يخصصون الزبير بن العوام بهذا اللقب المبارك .

---

(١) كتاب قصص الأنبياء المسمىٰ ـ بالعرائس ـ لأبي اسحق محمد بن ابراهيم النيسابوري الثعلبي المتوفى ٤٢٧ هـ الطبع في مصر ـ بدون تاريخ .

وصية الزبير في يوم الجمل[1]

نثبت وصية الزبير بن العوام لأبنه عبدالله ، اعتماداً على ما جاء في كتاب رياض الصالحين للإمام المحدث الحافظ محيي الدين أبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي المتوفى ٦٧٦ هـ ، إذ جاء في تسلسل ٢٠٤ بما يلي :

وعن أبي خبيب (بضم الخاء المعجمة) عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ، قال : لمّا وقف الزبير يوم الجمل ، دعاني فقمت الى جنبه ، فقال : يا بني انه لا يقتل اليوم الا ظالم أو مظلوم وإني لا أراني إلا سأقتل ، اليوم مظلوماً ، وإن من أكبر همي لدَيْني ، أفترىٰ يبقىٰ من مالنا شيئاً ؟

ثم قال : يا بني بع ما لنا واقض ديني ! .

وأوصىٰ بالثلث وثلثه لبنيه (يعني لبني عبدالله بن الزبير ثلث الثلث) .

قال : فان فضل من مالنا بعد قضا الدين شيء فثلثه لبنيك .

قال هشام : وكان ولد عبدالله بن الزبير وازىٰ بعض بني الزبير خبيب وعباد وله يومئذٍ تسعة بنين وتسع بنات .

قال عبدالله : فجعل يوصيني بدينه ، ويقول يا بني : ان عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي .

---

(١) رياض الصالحين للإمام المحدث الحافظ محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى ٦٧٦ هـ .
عنيت بطبعه ونشره شركة الشمرلي ـ مصر ـ الطبع بدون تاريخ.
يراجع من الصفحة ٥٤ الى الصفحة ٥٥ / الرواية منقولة عن البخاري .

قــال : فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت يا أبتِ من مولاك ؟

قال : الله .

قــال : والكلام لعبدالله هنا ـ : ما وقعت في كربة من دَينه إلا قلت يا مولىٰ الزبير أقضِ عنه دينه ، فيقضهِ .

قال : فقتل الزبير ولم يدع ديناراً ولا درهماً ، إلا أرضين منها الغابة ، واحــد عشــر داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر .

قال : وإنمــا كان دينه الذي عليه ، ان الرجل كان يأتيه فيستودعه إياه فيقول الزبير : لا ولكن سلف ، أني أخشىٰ عليه الضيعة . . ، وما ولي إمارة قط ولا جباية ولا شيئاً ، إلا أن يكون في غزوٍ مع رسول الله ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم .

قال عبدالله : فحسبــت ما كان عليه من الدين ، فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف .

قال هشام : ، فلقي حكيم بن حزام ، عبدالله بن الزبير .

فقال : يا ابن أخي ! كم على أخي من الدين ؟

قال عبدالله بن الزبير : فكتمته وقلت مائة ألف .

فقال حكيم : والله ما أرىٰ أموالكم تسع هذه ؟

فقال عبدالله : أرأيتك إن كانت ألفي ألف ومائتي ألف ؟ .

قال : ما أراكم تطيقون هذا فان عجزتم من شيء فاستعينوا بيّ .

قال هشام : وكــان الزبير قد اشترىٰ الغابة بسبعين ومائة ألف ، فباعها عبدالله ، بألف ألف وستمائة الف ثم قام فقال : مــن كان له على الزبير شيء فليوافنا بالغابة ، فأتاه عبدالله بن جعفر وكان له على الزبير أربعمائة ألف ، فقال لعبدالله : ان شئتم تركتها لكم ؟

فقال عبدالله : لا

قال : فان شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم ؟
فقال عبدالله : لا
قال : فاقطعوا لي قطعة .
قال عبدالله : لك من هنا الى ههنا .

فباع عبدالله منها ، فقضىٰ عنه دينه ، وأوفاه وبقي منها أربعة أسهم ونصف ، فقدم على معاوية ، وعنده عمرو بن عثمان ، والمنذر بن الزبير وابن زمعة .

فقال له معاوية : كم قومت الغابة ؟
قال : كل سهم بمائة ألف .
قال : كم بقي منها .
قال : أربعة أسهم ونصف .

فقال المنذر بن الزبير : قد أخذت منها سهماً بمائة ألف .

وقال عمرو بن عثمان : قد أخذت منها سهماً بمائة ألف .
وقال ابن زمعة : قد أخذت منها سهماً بمائة الف
فقال معاوية : كم بقي منها ؟
قال (عبدالله) : سهم ونصف سهم .
قال معاوية : قد اخذته بخمسين ومائة الف .

قال هشام : وباع عبدالله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف ، فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه ، قال بنو الزبير : اقسم بيننا ميراثنا .

قال (عبدالله) : والله لا أقسم بينكم ، حتى أنادي بالموسم أربع سنين : ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فليقضه ؟

فجعل كل سنة ينادي في الموسم ، فلما مضىٰ أربع سنين ، قسم بينهم ودفع الثلث ، وكان للزبير أربع نسوة فأصاب كل امرأة الف الف ومائتي الف

مجمع خمسين ألف ألف ومائتي ألف .

قالوا في الزبير

قال حسان بن ثابت[1] :

قام على عهد النبي وهديه ... حواريه والقول بالفعل يعدلُ
أقام على منهاجه وطريقه ... يوالي ولي الحق والحق أعدلُ
هو الفارس المشهور والبطل الذي ... يصول إذا ما كان يوم محجل
وان امرأً كانت صفية أمه ... ومن أسد في بيته لمرفلُ
له من رسول الله قربىً قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مؤثلُ
فكم كربة ذب الرسول بسيفه ... عن المصطفىٰ والله يعطي ويجزلُ
إذا كشفت عن ساقها الحرب حشها ... بأبيض ، سباق الى الموت يرفلُ
فما مثله فيهم ولا كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبل

قول ابن عباس في الزبير

سأل معاوية بن أبي سفيان ابن عباس . عن رأيه في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، والعباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنهم اجمعين ، وكان ابن عباس يجيبه عن كل واحد منهم بما يستحقه من الثناء والتقدير والتبجيل ، ومما قاله في طلحة والزبير بعد ان قال له معاوية : فما تقول في طلحة والزبير - رضي الله عنهما - ؟

قال ابن عباس : «رحمة الله عليهما ، كانا والله عفيفين برين ، مسلمين طاهرين ، متطهرين شهيدين ، عالمين ، زلاّ زلة والله غافر لهما إن شاء الله بالنصرة القديمة والصحبة القديمة والأفعال الجميلة »[2] .

وقال معاوية لعبدالله بن الزبير في احدىٰ المرات « ولأبيك في الإسلام

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٩٨ .
(٢) حياة الصحابة ج ١ ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

نصيب وافر »[1] .

ويقصد أبيه الزبير بن العوام ، وقال عبدالله بن الزبير للإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما وهو يتكلم له عن أبيه : « كان أبي الزبير ، حواري رسول الله ﷺ وأشد الناس بأساً ، وأكرمهم حسباً في الجاهلية وأطوعهم لرسول الله ﷺ »[2] .

ويمكننا ان ننسج من هذه الأقوال المأثورة التي وردت في حق الزبير ، بانه كان حقاً فارس رسول الله وركن الإسلام ، ومفخرة من مفاخر تاريخ الجزيرة العربية والأمة العربية والإسلامية .

---

(١) المحاسن والأضداد ، للجاحظ .

(٢) المحاسن والأضداد ، للجاحظ ايضاً .

الخلاصة

في حياة البطل الزبير بن العوام تصورات سامية تفوح بالفداء والتضحية والنبل وامتثال المبادىء التي تنير الدرب ، وتمهد السبيل للطاقات الإنسانية من التزود بشحنات الخير والفضيلة واستمرارها في البذل والعطاء .

ونتعلم من دراستنا للزبير بن العوام ، معنىٰ الثقة والإخلاص وإداء مسؤولية الواجب بأكمل صورة .

ان معدن الزبير بن العوام يشرق بالنور والطيب ، وهما ممزوجان بالحزم والضبط والكرم والتطبع على الأخلاق السامية والخصائص الفاضلة ، والشمائل الفاخرة ، والأمانة المثالية .

والزبير وأمثاله من شخصيات الزمن المعدودين والممتازين، ومن روائع من انجبتهم أرض الجزيرة العربية ومن أبرر الشخصيات التاريخية في الإسلام ، والتاريخ في لهفة مستمرة لتكرر بروز أفراد يغيرون وجهه ويعكسون للواقع رسالته الصحيحة كالزبير بن العوام وأمثاله واذا ارادت الأمة العربية أن تحيا حياة حرة كريمة ، فلتستلهم الدروس والمناهج والسلوك من قائد المسيرة السماوية المباركة محمد ﷺ ورجاله ابو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيد عامر بن الجراح ومن تبع سيرتهم .

وبعد فلقد أبرأت ما كان عليّ من ذمة للزبير بن العوام ، وإخراج شخصيته للحقيقة والتاريخ ، وان كنت لم آتِ ببقية أخباره وامجاده ، والحوادث المتعلقة به ، . . وهي كثيرة في الكتب التاريخية لمن يتحرىٰ عنها بتتبع وتفرغ تام .

وكان الدافع الاساسي لكتابة هذه السلسلات عن حياة الزبير بن العوام هو ما آلمني من عدم وجود ترجمة تاريخية بصورة تفصيلية ، حاله حال غيره من ابطال العرب والمسلمين ، ولأن الزبير له مكانة لا تنكر في تاريخ تأسيس وانتشار العقيدة الإسلامية . وجميع مواقفه تتكلم عنه وتشهد له بالأهمية ، وتقرر بالمجد والفخر والجود والتفاني في سبيل المبادىء المحمدية .

ان الزبير كان بتعاونه ، يساهم في دفع الطوارىء المؤذية وإزاحة المعرقلات وتبديد الحجب وتحطيم التحجر الوثني الجامد في التأريخ الإنساني ، ويبذل من أجل ذلك آخر ما عنده من طاقة ، كل ذلك ، حفاظاً على المكتسبات الإنسانية العادلة التي حواها المنهاج الآلهي الذي جاء لكي يتقوم الإعوجاج وتتحقق السعادة ويتحرك الضمير والعقل والوجدان نحو حب الحقيقة والسعي من اجل العمل النافع .

فهرست المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .

٣ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من الزمان تأليف الإمام أبو محمد عبدالله بن اسعد اليافعي اليمني المكي . بيروت ١٩٧٠ الطبعة الأولى . الجزء الأول .

٤ ـ تاريخ الأمم والملوك . محمد بن جرير الطبري مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٩ م .

٥ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ؛ عز الدين بن الأثير طبعة طهران .

٦ ـ سبائك الذهب في معرفة فضائل العرب لأبي الفوز محمد أمين البغدادي السويدي . طبع مصر ـ القاهرة .

٧ ـ الإصابة في تمييز الصحابة أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩ .

٨ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد طبع بيروت ١٩٥٧ .

٩ ـ الإستيعاب في اسماء الصحاب ؛ أبو عمر يوسف بن عبدالله القرطبي المطبوع مع هامش الاصابة ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩ .

١٠ ـ جامع بيان العلم وفضله ؛ أبو يوسف بن عبدالله القرطبي دار الكتب العلمية . بيروت ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ .

١١ ـ السيرة النبوية لابن هاشم ـ المجلد الأول بيروت ١٩٧١ ـ الطبعة الثالثة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م . القاهرة ـ مطبعة الحجازي .

١٢ ـ تاريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطي ط ٢ ١٩٦٤ مطبعة المدني . القاهرة .

١٣ ـ الخصائص الكبرى ؛ جلال الدين السيوطي كذلك القاهرة ١٩٦٧ مطبعة المدني .

١٤ ـ الوسائل الى مسامرة الأوائل جلال الدين السيوطي كذلك تحقيق الدكتور سعد أطلس ١٩٥٠ مطبعة النجاح بغداد .

١٥ ـ لباب النقول في أسباب النزول . جلال الدين السيوطي مكتبة الرياض الحديثة ـ السعودية . الطبع بلا تاريخ .

١٦ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة ؛ أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري ط ٢ ١٩٥٣ مصر ـ مطبعة دار التأليف .

١٧ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربىٰ ـ محب الدين بن عبدالله الطبري . طبع في القاهرة ١٣٥٦ ، نشر مكتبة القدس .

١٨ ـ المحاسن والأضداد ـ الجاحظ تحقيق فوزي عطري ١٩٦٠ بيروت .

١٩ ـ البيان والتبيين ، الجاحظ الجزء الثالث ١٩٦٨ ، بيروت .

٢٠ ـ أخبار الظراف والمتماجنين عبد الرحمن بن الجوزي مراجعة وتقديم عبد الرؤوف سنة ١٣٩٨/١٩٧٨ . القاهرة ـ الناشر مكتبة الكليات الازهرية .

٢١ ـ الوفا باحوال المصطفى ؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق مصطفى عبد الواحد الطبعة الأولىٰ ١٣٨٦/١٩٦٦ مطبعة السعادة القاهرة .

٢٢ ـ الكامل في التاريخ ، عز الدين علي بن محمد بن الأثير المتوفى ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٣ م ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ .

٢٣ ـ فتوح الشام / الواقدي ، الجزء الثاني ، منشورات المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٦ .

٢٤ ـ مروج الذهب للمسعودي القاهرة ١٣٥٧ هـ .

٢٥ ـ مكاشفة القلوب ـ الإمام الغزالي ـ القاهرة ـ الطبع بدون تاريخ .

٢٦ ـ تاريخ خليفة بن خياط رواية بقي بن مخلد ، تحقيق سهيل زكار/ دمشق/ سلسلة احياء التراث القديم رقم (١٧) .

٢٧ ـ الفرج بعد الشدة للقاضي ابي علي المحسن بن أبي القاسم المتوفى ٣٢٧ هـ ـ
ط ١ ١٩٥٥ دار الطباعة المحمدية ، مصر .

٢٨ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة بيروت ، دار الكشاف ـ الطبع بلا تاريخ .

٢٩ ـ البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب ـ مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل ـ احمد بن علي المقريزي ـ تحقيق الدكتور عبد المجيد عابدين .
الطبعة الأولىٰ ١٩٦١ ، مصر . القاهرة .

٣٠ ـ نهاية الأرب في معرفة انساب العرب للقلقشندي طبع في القاهرة ١٩٥٩ .

٣١ ـ المستطرف في كل فن مستظرف ، شهاب الدين محمد بن احمد أبي الفتح المحلي (الكتاب في جزأين) المتوفى سنة ٨٥٠ هجرية .

٣٢ ـ قصص الأنبياء المسمىٰ بالعرائس لأبي اسحق محمد بن ابراهيم

النيسابوري الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية الطبع في مصر ـ بدون تاريخ .

٣٣ ـ رياض الصالحين للإمام المحدث الحافظ محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى ٦٧٦ هجرية ، عنيت بطبعه ونشره شركة الشمرلي ـ مصر ـ الطبع بدون تاريخ .

٣٤ ـ نور الأبصار في آل بيت النبي المختار سيد مؤمن الشبلنجي . ١٩٦٣ ، مطبعة عاطف مصر .

٣٥ ـ نزهة المجالس ومنتخب العرائس ، الشيخ عبد الرحمن الصفوري الشافعي الجزء الأول ـ القاهرة .

٣٦ ـ وقعة الجمل تأليف محمد بن زكريا بن دينار الغلابي البصري المتوفى ٢٩٨ هـ ، رواية محمد بن يحيىٰ الصولي تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين الطبعة الأولى ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

٣٧ ـ الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ط ١ القاهرة ١٩٦٠ .

٣٨ ـ فتوح مصر وأخبارها لأبن عبد الحكم طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٠ .

٣٩ ـ كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني نشر مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده .

٤٠ ـ العواصم من القواصم ، للقاضي ابي بكر بن العربي تحقيق محيي الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٧١ هجرية .

٤١ ـ الأموال . الإمام الحافظ أبي عبدالله بن سلام ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م ، القاهرة نشر مكتبة الكليات الازهرية .

٤٢ ـ الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر بغداد تحقيق الدكتور محمد

حسين الزبيدي : وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨١ .
٤٣ ـ الخراج لأبي يوسف الانصاري . القاهرة ١٣٩٢ هجرية ، الطبعة الرابعة .
٤٤ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ـ القاهرة .
٤٥ ـ مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمع الدكتور محمد حميد الله الحيدر أبادي منشورات القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٤١ .
٤٦ ـ حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاند هلوي . مصر ١٩٦٨ .
٤٧ ـ مختار الأغاني في الأخبار والتهاني لابن منظور مصر ـ القاهرة .
٤٨ ـ موضح أوهام الجمع والتفريق ، حيدر أباد الركن ١٩٦٠ الطبعة الأولىٰ ، الجزء الثالث .
٤٩ ـ معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع تأليف الوزير الفقيه أبي عبدالله بن عبد العزيز البكري الاندلسي ، الكتاب في جزأين تحقيق مصطفى السقا ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ .
٥٠ ـ التاريخ الكبير ؛ أبوعبدالله بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري ، ط ١ ١٣٦١ حيدر أباد الركن .
٥١ ـ علوم الحديث ومصطلحاته ـ الدكتور صبحي الصالح .
٥٢ ـ القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولىٰ للهجرة ـ الدكتور عبدالله خورشيد البري ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ . القاهرة .
٥٣ ـ مسلمون ثوار ، محمد عمارة ـ بيروت ١٩٧٤ .
٥٤ ـ فقه السنة للسيد سابق ، المجلد الأول ، مكتبة العربي ، لبنان ، بيروت

١٩٦٩

٥٥ ـ مختار الاحاديث والحكم النبوية . السيد احمد الهاشمي ، ط ١٢ ، مطبعة الاستقامة القاهرة .

٥٦ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول للشيخ علي منصور ، احد علماء الأزهر . القاهرة .

٥٧ ـ حرب الجمل السيد محسن العاملي ط ١ ، دار الفكر للجميع ، بيروت ١٩٦٩ .

٥٨ ـ مجلة التربية الإسلامية/ العدد السادس/ السنة الثالثة عشرة ١٣٩٠/١٩٧١ .

٥٩ ـ جعفر بن أبي طالب . محمد جواد القبان النجف الأشرف سنة الطبع ١٩٥٤ م .

٦٠ ـ تاريخ الإسلام السياسي . حسن ابراهيم حسن . الجزء الأول . القاهرة . مطبعة حجازي ١٩٣٥ .

٦١ ـ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية . أحمد شلبي ط ٢ ، ١٩٥٩ ، القاهرة .

٦٢ ـ الزبير بن العوام ـ سلسلة الأبطال العدد ـ ٤ ، للمؤلفين محمد عمر الداعوق ، محمد علي القطب بيروت ـ صيدا .

٦٣ ـ موجز تاريخ العرب والإسلام . الدكتور حسين قاسم العزيز ـ بيروت . دار العلم للملايين الطبعة الأولىٰ ١٩٧١ .

٦٤ ـ أشعار الترقيص عند العرب . سعيد الديوه جي طبع وزارة الإرشاد ، سلسلة الفنون الشعبية . الطبع بدون تاريخ .

٦٥ ـ نسب قريش : أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري [١٥٦ هـ

٢٣٦ هـ] ، ذخائر العرب رقم ١١ عني بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه إ . ليفي بروفنسال الطبعة الثانية ، دار المعارف مصر سنة ١٩٧٦ .

٦٦ ـ كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، الجاحظ وزارة الإعلام العراق ، دار الرشيد ١٩٨٢ [سلسلة ١١٤] .

فهرست المواضيع

الإهداء ٥
المقدمة ٧
اسمه ونسبه وكنيته ٩
حياته في الجاهلية ١٠
اسلامه ١٦
تاريخ إسلامه ١٧
قصة إسلامه ١٨
الزبير والمسؤولية ٢١
الزبير ومواجهات الدعوة ٢٥
الهجرة الى الحبشة ٣١
الهجرة الى المدينة ٣٥
الزبير في المدينة ٣٦
الحروب والغزوات الاسلامية ودور الزبير فيها ٣٩
معركة بدر ٤٠
معركة أحد ٤١
غزوة الأحزاب (الخندق) ٤٩
الزبير في خيبر ٥٥
موقف الزبير في فتح مكة ٥٩
تسمية من كتب له (ص) ٦٣

الزبير ومهمات أخرى ٦٥
إقطاع الرسول للزبير ٦٧
كتاب الرسول بإقطاع الزبير بن العوام ٦٨
أ ـ نص الوثيقة الأولى ٦٨
ب ـ نص الوثيقة الثانية ٦٩
وصية نبوية للزبير بن العوام ٦٩
مكانة الزبير لدى الرسول وأخباره الأخرى في عهده ٧٣
أحاديثه عن الرسول ٧٧
الزبير في الجنة ٨١
الزبير في عهد أبي بكر ٨٥
الزبير في اليرموك ٩٠
الزبير في عهد عمر ٩٣
استعداد الزبير للإنضمام الى فرسان القادسية في جبهة العراق ٩٩
الزبير واشتراكه في فتح مصر ١٠٣
الزبير وعهد عثمان ١٢١
الزبير والأيام الأخيرة من خلافة عثمان ١٢٥
الزبير في عهد علي ١٣١
جوانب من حياة الزبير بن العوام ١٤٩
وصف الزبير بن العوام ١٤٩
زوجاته وأولاده ١٥٠
اخوة الزبير وأخبارهم في التاريخ ١٥١
الزبير وأطفاله ١٥٣
ذرية الزبير في ذمة التاريخ ١٥٥
شعره ١٥٩
شجاعته ١٦١

كرمه وإنصافه ١٦٥
فلسفته في التجارة ١٦٥
أمانته وثقة الصحابة به ١٦٥
علاقة الزبير بأسباب نزول بعض الآيات القرآنية ١٦٦
الزبير والكتابة ـ خبر في عهد الرسول ١٦٧
الرسول وحربة الزبير ١٦٨
النبي يسمي ابنه عبدالله ١٦٩
الزبير يشيد بعلي ١٦٩
بين طلحة والزبير ١٦٩
الزبير حواري رسول الله ١٧٠
وصية الزبير في يوم الجمل ١٧٣
قالوا في الزبير ١٧٦
قول ابن عباس في الزبير ١٧٦
الخلاصة ١٧٩
الخاتمة ١٨١

لو كان هذا الكتاب مجرد سرد لسيرة أحد أبطال تاريخنا أو تمجيداً لأعماله الكبيرة،

أو تمجيداً لأعماله الكبيرة.

لما دفعنا به إلى المطابع.

فقد مللنا الاجترار، والتغني بأمجاد طواها الماضي السحيق، ويكاد يطمسها التخلف.

على أن الزبير بن العوام ـ «أول من سلَّ السيف في سبيل الإسلام» ـ بالفضل جدير.

أوَلم يقل له الرسول ﷺ: «صلى الله عليك وعلى سيفك»؟ وعليّ: «هذا سيف طالما فرج الكرب عن رسول الله»؟

ولكن ثراء الكتاب في عِبره، لا في خبره:

فلو قلته مدرسة للأمهات لما غاليت،

ولو قلته مدرسة البطولات، طالعتك صورة الفارس، «أول من استُقدِم فأقدم وانتصر».

ولو شئته مدرسة للهداية، والرجوع إلى الصواب بشجاعة، واختيار ذل التراجع في الحق على نزوة المكابرة في الباطل لكفتك أقوال الزبير.

ولو قلته ـ أخيراً لا آخراً ـ مدرسة قومية جامعة لأمة العرب، تكشف لهم دسائس أعدائهم الذين كانوا ـ كما اليوم. ! ـ يشعلون نار الفتن، ويستخدمون العرب وقوداً لها، فحسبك عبرة معركة الجمل.

هذا الكتاب، حشد من العِبر، نقدمه لكل عربي وعربية من نعومة الأظفار، الى كهولة الأعمار، بطمأنينة النفس التي تأتي عملاً خيّراً.

الدار العربية للموسوعات